

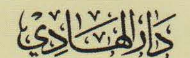
سلسلة



دِرَاسَة تمهيديَّة للمنهَج المقتَرح لفهم القرآن

فيصل العوامي








التفسير العلمي التربوي
دراسة تمهيدية للمنهج المقترح لفهم القرآن

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م



دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٥٥٠٤٨٧/ ٠١ - ٨٩٦٣٢٩/ ٠٣ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص. ب: ٢٨٦/ ٢٥ غبيري - بيروت - لبنان

E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

التفسير العلمي التربوي

دِرَاسَة تمهيديَّة للمنهَج المقترَح لفهم القرآن

فيصل العوامي





سلسلة نصف سنوية
تصدرها مؤسسة القرآن نهج

المشرف العام

الشيخ عبد الغني عباس

الشيخ فيصل العوامي

رئيس التحرير

حسن آل حمادة

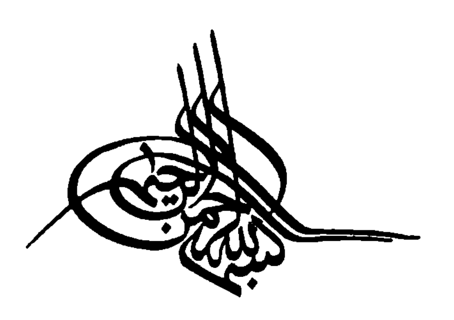
مدير التحرير

بشير البحراني

المسؤول الفني

[illegible]





الإهـــداء

إلى صديق قديم شهد له جميع رفقائه بالخلق الرفيع والذكاء والشجاعة.. رجل نموذجي أعطى للقرآن كل ما يملك من وقت، وما فاضت روحه حتى أنجز مع رفيقيه صياغة تفسير (من هدى القرآن) لأستاذنا سماحة آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي.. بدأ قرآنياً وانتهى قرآنياً.. إنه سماحة الحجة الشيخ علي مهدي آل حيدر -رحمه الله-.. فإليك يا صديق القرآن أهدي هذا الجهد القرآني المتواضع، سائلاً المولى القدير أن يجعله في ميزان أعمالك يوم تخف فيه الموازين.

قائمة المحتويات

المقدّمة

قال الحق جلت قدرته في قرآنه الذي وصفه بالعظمة، في خطاب موجَّه صريحاً لأهل الكتاب وتلميحاً لكافة المسلمين بل لجميع الناس:

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

وهو قول عظيم يتضمن أهدافاً من أعظم أهداف الإنسان في الحياة، وهي السعادة والوضوح في المسيرة والهداية والنجاح، فهذه الأهداف بلا ريب تهم الإنسان الواعي والمتطلع للأفضل، والقرآن بما

يحمل من قيم وإرشادات يتكفل بتحقيقها على أكمل وجه..

وإذا كان القرآن في هذا المستوى من العطاء والإفادة.. أفلا يكون ذلك داع كافٍ للتمسك به والتربّي على قيمه وبصائره؟

لا يسع لأحد أن يجيب إلا بالإيجاب، فلا أحد يرفض السعادة والنجاح والهداية.. إلا أن كل ذلك لا يمكن تحققه فعلاً ما لم نتعلّم فن التدبر في هذا القرآن العظيم، فبالعلم بذلك الفن نستطيع أن نستخرج قيم السعادة والنجاح والهداية.. وهذا الكتاب المختصر يتبنى تقديم رؤية عملية تساهم في بلورة فن التدبر والتفسير.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يتقبل منّا ذلك، وأن يمن علينا بفهم كلامه العظيم، إنه ولي التوفيق.. وصلى الله على نبينا محمد وآله الطاهرين.

فيصل العوامي

١/ ٥/ ١٤٢٣ هجري قمري

الفصل الأول

في خطوط ثلاثة...

تحدث القرآن عن نفسه

لو نقوم باستقراء تام للآيات القرآنية التي تعرضت للحديث عن القرآن الكريم، لوجدنا بأنها تسير في خطوط ثلاثة:

الخط الأول: ما يتعلق بالحديث عن الطبيعة الذاتية للقرآن.. ويتركز في أربعة معان أساسية تعود إليها سائر المعاني، وهي كما في نص الآيات من قوله تعالى: ﴿الْقُرْآن الْعَظِيم﴾، و﴿الْكِتَاب الْحَكِيم﴾، و﴿نُور﴾، و﴿مُبِين﴾.

الخط الثاني: ما يتعلق بالحديث عن المستوى التأثيري للقرآن.. ويتركز في تأثيرات ثلاثة أساسية ترجع إليها كافة التأثيرات، وهي كما في نص الآيات من قوله سبحانه: ﴿بَصَائِر﴾، و﴿هُدى﴾، و﴿رَحْمَة﴾.

الخط الثالث: ما يتعلق بالحديث عن الموقف الإنساني تجاه القرآن.. ويتركز في ثلاث مواقف أساسية تعود إليها جميع المواقف،

وهي كما في النص القرآني من قوله عز وجل: ﴿آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ﴾ إشارة إلى الإيمان وهو وظيفة القلب، و﴿تَعْقِلُون﴾ إشارة إلى التعقل وهو وظيفة العقل، و﴿اتَّبِعُوا النُّورَ﴾ إشارة إلى الإتباع وهو متعلق بالسلوك الذي هو ترجمة لما آمن به القلب وتعقله العقل.

ولكي نتوصل لمعرفة حقيقة الحديث القرآني عن نفسه، لابد أن نلقي نظرة -مشفوعة بشيء من التأمل- على هذه الخطوط، لأنها بأجمعها تشكل الرؤية القرآنية الحقيقية عن ذات القرآن وآثاره وأهدافه.

الخط الأول: الطبيعة الذاتية للقرآن

نجد الآيات المباركة عندما تحدثت عن القرآن -أي عندما أرادت أن تعرّفنا به- وصفته في بادئ الأمر بالعظمة، فقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنْ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر:٨٧]، والعظيم في هذه الآية صفة للقرآن كله، لا لخصوص سورة الحمد، وإن كانت العظمة تشملها لأنها بعض القرآن الموصوف بالعظمة وقد قوبل بأكمله بها[١].. وذلك مبني على أن المراد من السبع المثاني خصوص

---

[١] إضافة للتعبير عنها بالنكرة غير الموصوفة (سبعاً) وفيه دلالة واضحة على عظمة قدرها وجلالة شأنها. راجع في ذلك: [السيد محمد حسين الطباطبائي. الميزان في تفسير القرآن، ج١٤، ص١٩٢.

سورة الحمد، وهو عمدة الآراء وأصحّها لاستناده إلى رواية صحيحة على الأصح، فقد روى الشيخ الطوسي -رحمه الله- في التهذيب بإسناده عن محمد بن علي بن محبوب عن العباس عن محمد بن أبي عمير عن أيوب عن محمد بن مسلم[1] قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن السبع المثاني والقرآن العظيم هي الفاتحة؟ قال: نعم، قلت: بسم الله الرحمن الرحيم من السبع؟ قال: نعم هي أفضلهن».

والعظمة الموصوف بها القرآن في هذه الآية مستمدة من العظمة الإلهية، باعتبار أن القرآن كلام الله سبحانه وتعالى، ولأن العظمة الإلهية تعني الفوقانية والتعالي فوق كل شيء، فإن العظمة في كلامه سبحانه لا بد أن تعني أيضا الفوقانية والتعالي فوق كل ما هو من جنسه وهو الكلام، أي أن القرآن بما يتضمن من معاني وقيم ومفاهيم يتعالى على سائر المعاني والقيم البشرية، لأنه كلام عظيم نزل من العظيم، ومن أبرز أوجه الفوقانية هذه أنه يتعالى على الزمان

---

[1] وطريق الشيخ إلى بن محبوب صحيح، والعباس هو بن معروف الثقة، وابن أبي عمير ثقة جليل القدر، وأيوب وإن كان مردداً بين الثقة -أيوب بن الحر المعروف بـ(أخو أديم) بياع الهروي، وأيوب بن عطية- ومن لم يصرح بوثاقته -أيوب بن أعين الكوفي-، إلا أن احتمال تعيّنه في الأول قريب جداً، ثم أن مجرد رواية ابن أبي عمير عنه كاف في اعتبار روايته كما هو المشهور، ومحمد بن مسلم ثقة جليل القدر، فالرواية على ذلك معتبرة.

والمكان، على خلاف أفكار البشر تماماً ما عدا من نطق بالوحي، فهي في الغالب تعد أفكاراً لها تاريخية، بينما الكلام القرآني لا تاريخية له..

وفي هذا الصدد روى الشيخ الصدوق في العيون قال: حدثنا الحاكم أبو علي الحسين بن أحمد البيهقي، قال: حدثنا محمد بن يحيى الصولي، قال: حدثني القاسم بن إسماعيل أبي ذكوان، قال: سمعت إبراهيم بن العباس يحدث عن الرضا عن أبيه موسى بن جعفر عليه السلام إن رجلاً سأل أبا عبدالله عليه السلام: «ما بال القرآن لا يزداد عند النشر والدرس إلا غضاضة؟ فقال: لأن الله تبارك وتعالى لم ينزله لزمان دون زمان، ولا لناس دون ناس، فهو في كل زمان جديد، وعند كل قوم غض إلى يوم القيامة»[1].

ولهذه الميزة من التعالي كان لا بد أن يكون القرآن في حديثه وإخباره وتوجيهه أحسن وأفضل من كل ما عداه، وهو تماماً ما نطقت به الآية من قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ...﴾ [الزمر:٢٣].. فقيمه أحسن القيم، وأخباره أحسن

---

[1] الشيخ أبو جعفر الصدوق محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي. عيون أخبار الرضا، ج١، ص٩٣. والشيخ محمد باقر المجلسي. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، ج١٧، ص٢١٣، إلا أن فيه «لا يزداد على النشر» و«لم يجعله لزمان».

الأخبار، وعلمه أفضل العلوم، وإرشاداته أفضل أنواع الإرشاد.. .الخ.

وبالتالي فإن إحدى أوجه العظمة وأفرادها الأفضلية في الحديث.. بالإضافة لما عبّرت عنه الآيات القرآنية بالثقل، فقد جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ [المزمل:٥]، فالثقل من المعاني التي تعود إلى المبدأ الأعلى وهو العظمة، وبذلك فالقرآن ليس فقط أحسن وإنما أثقل من كل ما يبدعه الفكر البشري.

والثقل هنا قد يعني -كما بنى على ذلك العلامة الطباطبائي- أنه كلام إلهي مأخوذ من ساحة العظمة والكبرياء ولا يمكن أن تتلقاه إلا نفس طاهرة[1]، ولهذا فإن الرسول ﷺ كان يتربد وجهه ويتصبب عرقاً إذا أوحيت إليه بعض الآيات منه، وفي هذا السياق جاء قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ...﴾ [الحشر:٢١].

وقيل إنه ثقيل على الكافرين والمنافقين لما فيه من الإعجاز.

وقيل إنه باق على وجه الدهر، لأن الثقيل من شأنه أن يبقى ويثبت في مكانه، وهو يسير في خط واحد مع قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩].. بالإضافة إلى أقوال

---

[1] السيد محمد حسين الطباطبائي. الميزان في تفسير القرآن، ج٢٩، ص٦٢.

أخرى[1].

كما لعل أن يكون من جوانب الثقل أنه لا يمكن أن يخترق بكلام البشر الخفيف، وقيل بأن الفراء أشار إلى هذا القول ضمنا حيث قال: «قولاً ثقيلاً أي ليس بالخفيف ولا بالسفساف لأنه كلام ربنا تبارك وتعالى»[2].. فبالتالي مهما تطور فكر الإنسان يبقى خفيفا أمام القرآن العظيم والثقيل، وهذا ما تشير إليه الآية في سورة فصلت من قوله تعالى: ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢].

وهنا فإني أعتقد بأن قوله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ...﴾ [الإسراء:٨٨]، لا يعني فقط تكوين آيات وألفاظ موازية للقرآن وبمستواه، وإنما أيضا وهو الأبرز يعني الإتيان بأفكار ونظريات بمستواه عميقة وقادرة على الصمود بالرغم من امتداد الزمن.

ومن معاني ثقله أيضا أنه يحمل في طياته معان عظيمة، سواء لأنها بذاتها عظيمة وثقيلة لرجاحتها وعمقها وأصالتها، أو لأنها

---

[1] يمكن مراجعتها في: السيد محمد حسين الطباطبائي. الميزان في تفسير القرآن، ج٢٩، ص٦٢.

[2] فخر الدين الرازي. التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، ج٣٠، ص١٥٤.

تكاليف شاقة يحتاج اتباعها إلى جهد ومشقة[1].

ويمكن أن تكون جميع هذه الأقوال أو أغلبها على أقل تقدير يؤدي إليها التعبير بالثقل، وبذلك فإن الثقل يكون مشتقا من الأصل الأعلى وهو العظمة، ولعله لذلك عبّر بعض المفسرين عن الثقل بعبارات تشي بالعظمة، فقد عبّر الرازي عن متبنّاه بقوله «المراد من قوله ثقيلا عظم قدره وجلالة خطره، وكل شيء نفس وعظم خطره فهو ثقل وثقيل وثاقل، وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء ﴿قولاً ثقيلاً﴾ يعني كلاماً عظيماً»[2]، مما يعني أنه يلتقي مع الأفضلية (أحسن الحديث).. فالقرآن عظيم، والعظمة تعني الفوقانية والتعالي على كل شيء، بل وتعني أنه في كل شيء عظيم، في الفكرة والعرض والأسلوب والمنهج والتعاليم والأحكام وما إلى ذلك، ومن جوانب عظمته وأفرادها الأحسنية -فهو أحسن الأحاديث- والثقل بما يحمل في طياته من معاني.

إذاً، فالقرآن عظيم.. وهو أيضا حكيم، والحكمة هي الصفة المركزية الثانية التي وصف القرآن بها نفسه.. فقد قال الباري جل وعلا في مطلع سورة يونس وسورة لقمان: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ

---

(1) نفس المصدر.

(2) نفس المصدر.

﴿الْحَكِيمِ﴾ [يونس:١، ولقمان:٢]، وفي مطلع سورة يس: ﴿يس ۝ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [يس:١-٢].. وقد ذهب البعض إلى أن التعبير بالحكيم هنا يعود في الأصل إلى (محكمات)، أي من الإحكام، فيكون (الكتاب الحكيم) بمعنى المتقن والمحكم، وهو ما استظهره الشيخ أبو علي الطبرسي حيث قال في تفسير الحكيم من الآية الواردة في سورة يونس: «المحكم من الباطل الممنوع من الفساد لا كذب فيه ولا اختلاف»[1]، لكن هذا الاستظهار كما يظهر لي فيه شيء من القصور، فاختصار مفهوم الحكيم في مجرد الإحكام تعريف غير تام، لأن هذه الصفة يمكن أن يُنظر إليها من زوايا ثلاث، من زاوية السبب ثم النتيجة ثم المؤدى.

فأما من زاوية النتيجة فإن الحكيم مشتق من الحكمة، وبالتالي فالقرآن الحكيم يحتوي ليس على مجرد العلم النظري أو المعلومات العامة، وإنما على الحِكَم -جمع حكمة-، وهو متبنى السيد الأستاذ في تفسيره، فقد انتهى في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ إلى القول بأن «القرآن ليس فقط كتاب علم بل هو أيضا كتاب حكمة، والحكمة -كما يبدو لي- العلم النافع الذي بلغ في

[1] الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي. مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٥، ص١١٤.

تكامله ونضجه مبلغاً يجعله مؤثراً في سلوك البشر، ومغيرا الحياة، وصانعا للحضارة»[1].

وأما من زاوية السبب فالقرآن محكَم، كما قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ [هود:١]، ومنه جاءت محكمة في قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ...﴾ [محمد:٢٠]، ومحكمات في قوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ...﴾ [آل عمران:٧]، فهو في تركيبته الداخلية محكم ومتقن في اللفظ والمعنى وليس خصوص اللفظ فقط، ولأنه كذلك فإنه لا ينطق إلا بالحكمة، فالحكمة نتيجة لإحكامه، إذ أن معانيه مستقيمة لا كذب فيها ولا اضطراب ولا نقص ولا تشويش، بل فيه دقة وضبط وتعبير دقيق عن صلب الحقيقة وإرشاد إلى الواقع، وليس الحكمة إلا ذلك، ولذا فإن من أبرز تجليات الحكمة الفصل بين الحق والباطل بشكل واضح ودقيق، فالقرآن على ذلك فرقان، وقد نطقت الآيات بذلك، كما في قوله سبحانه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ...﴾ [الفرقان:١]، وفرقانيته هذه تعود إلى حكمته ومسبَّبة عنها، فحيث أن القرآن لا يتضمن غير الحكمة فإن ما عارضه لا بد أن يكون خلاف الحكمة، وبهذا فإن الاعتماد على القرآن يمكننا من

---

[1] آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي. من هدى القرآن، ج١١، ص٩٣.

التفريق والتمييز بين الحكمة وما عداها، ولذلك كان القرآن فرقانا..

ومن هنا يتضح بأن القرآن -المتضمن للحكَم فقط والفارق بين الحق وغيره- لا يأتي إلا بالحق، وبهذا فإن صفة الحق الموصوف بها القرآن في العديد من الآيات تعود إلى الأصل الأعلى المرتبط بها وهو(الحكيم)، فما دام القرآن يعبر عن الحقيقة التامة فكل ما فيه حق، فهو حق ونزل بالحق.. حق لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ...﴾ [فاطر:٣١]، وأيضاً: ﴿وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ...﴾ [الرعد:١]، ونزل بالحق لقوله عز وجل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ...﴾ [الزمر:٤١].

فالقرآن بناء على ذلك يعبّر عن الحق المطلق، إذ ليس فيه إلا الحكمة التامة، ولذا يصبح حاكماً، وهو مرادنا من المؤدى في الزاوية الثالثة، وهو ما دعا الكثير من المفسرين -بل عبر عنهم الرازي بالأكثرين- إلى تفسير الحكيم بالحاكم، لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمْ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ...﴾ [البقرة:٢١٣]، فهو محكم وبالتالي حامل للحكمة ومعبّر عن صميم الحق، لذلك لابد أن يكون حاكماً على سائر الأفكار والنظريات والمناهج والتوجيهات وما إلى ذلك من صنوف الكلام.. فالحكيم: محكَم وحكمة وحاكم.

بالتالي فالقرآن عظيم وحكيم.. كما أنه مبين، طبقاً لما جاء

في نص العديد من الآيات المباركة الواردة خاصة في مطالع بعض السور: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف:١، والشعراء:٢، والقصص:٢]، وهذا الوصف تارة يتوجه للقرآن بأكمله، وتارة لخصوص الآيات بأن توصف بـ(البينات) و(مبينات)، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ...﴾ [الحج:١٦]، وأيضاً: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ...﴾ [النور:٤٦].. وإلى نفس النتيجة تنتهي العديد من التعابير القرآنية منها:

لا ريب فيه.. كما في قوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ...﴾ [البقرة:٢]، إذ أن المبين لا يعني مجرد الوضوح في اللفظ العبارة، وإنما يشمل ما هو أبلغ من ذلك، فهو بيّن وبه وضوح تام لدرجة لا يشوبه حتى الأقل من درجات الريب والشك، فمعانيه يقينية وغير متزلزلة.

التيسير.. لما جاء في قوله سبحانه في أكثر من مقطع قرآني من سورة القمر: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ...﴾ [سورة القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠]، فلأن المعاني والأفكار وكذلك الألفاظ والعبارات مبيّنة بشكل تام، وليس فيها أي لبس أو تشويش، كانت الاستفادة منها سهلة يسيرة.

ولا شك أن ذلك يكشف جانباً مهماً من الجوانب المتميزة

في القرآن، فبالرغم من أنه عظيم يتعالى على كل كلام بشري، أي فوق المستوى البشري في الخطاب والمحادثة، وحكيم متضمن لأرقى الأفكار والنظريات والمناهج والتعاليم -=الحِكَم-، إلا أنه في نفس الوقت مبين وواضح، بحيث يسهل التعامل معه وفهمه من قبل المكلفين.

لذلك كله من الطبيعي أن يصبح القرآن نوراً يهتدى به في جميع مجالات الحياة الفردية والاجتماعية، سياسية كانت أم ثقافية أم اقتصادية أم سلوكية أم نفسية، وهذه هي تماماً الصفة المركزية الرابعة للقرآن، وقد قال تعالى في شأنها: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ...﴾ [المائدة:١٥]، وأيضاً: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا...﴾ [التغابن:٨]. ونورانيته تعني أنه نور ذاتاً ومنوّر خارجاً، أي أن كل معانيه وقيمه نورانية لا تشويش فيها ولا ضبابية بل جلية ومضاءة، هذا بالنسبة للطبيعة الذاتية للقرآن، وأما خارجاً فهو بسبب نورانية قيمه ينير الطريق والمسيرة للإنسان، وهو ما سنتوقف عنده في الحديث عن الخط الثاني.

إذاً، فالقرآن في طبيعته الذاتية:

عظيم.. يتعالى على كل كلام وفوق كل ما تنتجه البشرية من أفكار، كما يتعالى على الزمان والمكان.

وحكيم.. متقن في معانيه وأفكاره، ولا يتضمن غير الحكمة، ولذا أصبح حاكماً على كل ما عداه من كلام، فجميع ما تنتجه الإنسانية من أفكار لا بد أن يُحاكَم بالفكر القرآني، ولذلك فإن أهل البيت عليهم السلام أمروا بأن يُعرض كلامهم على القرآن[1].

ومبين.. تام الوضوح، ومعانيه يقينية لا يطرأ عليها الشك لفرط وضوحه وبيانه، ولذلك أصبح يسيراً في الفهم.

ونور.. في ذاته ومنوّر لغيره.

وما عدا ذلك من الصفات التي وصف القرآن بها نفسه، تعود في حقيقتها إلى هذه الصفات الأربع التي هي بمثابة الأصول الكبرى.. ومع ذلك فإن ثمة صفات نُصّ عليها في القرآن تضفي نوعاً من الخصائص المتميزة للفكر القرآني، وهي (كريم، ومجيد، وعزيز).. فأما (كريم) فقد وردت في آية واحدة فقط، حيث قال تعالى في سورة الواقعة: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٧]، وأبرز

---

[1] فقد روى الكليني محمد بن يعقوب عن عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد بن خالد عن أبيه عن النضر بن سويد عن يحيى الحلبي عن أيوب بن الحر قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «كل شيء مردود إلى الكتاب والسنة، وكل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف». [الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي. وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٢٧، ص١١١].

معانيها أن القرآن معطاء يجود بالعلم والمعرفة والهداية والسكينة على المؤمنين به، بل عطاؤه لا حدود له، ولهذا فهو (مجيد) كما قال تعالى في مطلع سورة ق: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق:١]، فمجيد تعني أنه كثير الكرم وأنه يجود على مريديه بكل ما يريدون، ولكنه مع ذلك (عزيز)، فقد قال تعالى: ﴿...وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت:٤١]، والعزة تعني «العديم النظير، أو المنيع الممتنع من أن يغلب»[1]، وقد مال العلامة الطباطبائي إلى المعنى الثاني، مستفيداً من الآية اللاحقة حيث اعتبرها عطف بيان على (عزيز) -وسأبين ذلك قريباً-، وهو دقيق ولكن مع ذلك يمكن أن يتجاوز المعنى في الآية إلى الاثنين، كما هو معتمد الرازي في تفسيره[2]، فهو عديم النظير لتفوّقه وتعاليه على كل ما سواه من فكر وكلام، ولأنه متعالي ومتجاوز للكل في مستواه أصبح منيعاً ممتنعاً، لا يمكن لكلام أو فكر أن يتغلب عليه أو يتجاوزه أو يفرض عليه رأياً أو نظرية..

---

(١) السيد محمد حسين الطباطبائي. الميزان في تفسير القرآن، ج١٧، ص٣٩٨.

(٢) فقد قال: «والعزيز له معنيان أحدهما: الغالب القاهر. والثاني: الذي لا يوجد نظيره، أما كون القرآن عزيزاً بمعنى كونه غالباً، فالأمر كذلك لأنه بقوة حجته غلب على كل ما سواه، وأما كونه عزيزاً بمعنى عديم النظير، فالأمر كذلك لأن الأولين والآخرين عجزوا عن معارضته». [فخر الدين الرازي. التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، ج٢٧، ص١١٤].

وبالتالي فالقرآن مع أنه كريم ومجيد، يجود على قرّائه بالعلم والحكمة والهداية وما أشبه، إلا أنه عزيز، لا يمكن لأحد مهما كان مستواه أن يفرض فكرة عليه بدعوى أنها منه وأن القرآن يتسع لكل كلام، لأن الفكر القرآني متعالي يمكن أن يتميّز عن غيره بسهولة، ولا يمكن لغيره أن يكون منه أو بمستواه، ولهذا فإن الآية التي جاءت بعد قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾؛ قوله تعالى: ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢]..

فهذه الصفات الثلاث تضفي نوعاً من التميّز للقرآن وفكره، ولكنها تنتمي للأصول الأربعة المذكورة، فالعزيز داخل ضمن العظيم، والكريم المجيد داخل ضمن أحد الثلاثة المتبقية أو يتوزع عليها، فالأصل هي الأصول الأربعة.

ولأن القرآن له هذه الأصول، فلا بد أن تكون له آثار من نوع خاص، إذ أن الآثار إنما هي إفرازات تنسجم مع طبيعة الشيء، فكل شيء يفرز ما يتناسب معه، فكتب الضلال -مثلاً- لا يمكن أن تفرز الهداية والرشاد، وإنما لا بد أن تكون إفرازاتها متناسبة مع جنسها وأهمها الضلال والانحراف، كذلك القرآن العظيم له آثار وإفرازات خاصة منسجمة مع طبيعته الذاتية، وهي ما سنتعرض له في الخط الثاني.

الخط الثاني: المستوى التأثيري للقرآن

إن المستوى التأثيري للقرآن -حسب العرض القرآني- يتركز في أربعة محاور: (البصائر، والهدى، والشفاء،والرحمة).. وقد ورد ذلك صريحاً وبشكل ترتبي في الآيات المباركة، ولكن ليس بين الأربعة وإنما بين ثلاثة منها، والآخر (الشفاء) ورد منفصلاً، وفي مورد واحد جاء بضميمة (الرحمة) تارة و(الهدى) تارة أخرى.. ففي سورة الأعراف قال تعالى: ﴿...هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران:٢٠٣]، كما قال سبحانه في سورة الجاثية: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية:٢٠].. وفي سورة يونس: ﴿قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور﴾ [يونس:٥٧]، وعن هذه المحاور الأربعة تتفرّع سائر التأثيرات الأخرى المشار إليها في الآيات.

وحتى نفهم المستوى الحقيقي للتأثير القرآني، ينبغي أن نحلل هذه المحاور باعتبارها مفاهيم علمية دقيقة، فما جيء بها على هذا النحو الترتبي إلا لغرض هام.

هناك من المفسرين من نظر إلى المحاور الثلاثة الواردة في سورة الأعراف والجاثية على أن بينها طولية وترتباً في المستوى، فالبصائر تختص بالمتعمقين إيمانياً، والهدى بمن هم دون هذا المستوى،

وأما الرحمة فتتعلق بالمبتدئين، وهذا نص عبارته: «... فذكر في وصف القرآن ألفاظاً ثلاثة: أولها: قوله ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أصل البصيرة الإبصار، ولما كان القرآن سبباً لبصائر العقول في دلائل التوحيد والنبوة والمعاد، أطلق عليه لفظ البصيرة، تسمية للسبب باسم المسبب، وثانيها: قوله ﴿وَهُدًى﴾ والفرق بين هذه المرتبة وما قبلها أن الناس في معارف التوحيد والنبوة والمعاد قسمان: أحدهما: الذين بلغوا في هذه المعارف إلى حيث صاروا كالمشاهدين لها وهم أصحاب عين اليقين. والثاني: الذين ما بلغوا إلى ذلك الحد إلا أنهم وصلوا إلى درجات المستدلين، وهم أصحاب علم اليقين، فالقرآن في حق الأولين وهم السابقون بصائر، وفي حق القسم الثاني وهم المقتصدون هدى، وفي حق عامة المؤمنين رحمة، ولما كانت الفرق الثلاث من المؤمنين لا جرم قال ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾»[1].

كما أن السيد الأستاذ ذهب في بعض نظراته القرآنية إلى شيء قريب من ذلك، ففي تفسير الآية من سورة الأعراف قال بالترتب بين البصائر والهدى، وأما الرحمة فهي نتيجة لهما معاً، وهذا نص عبارته: «والقرآن بصائر يرى المرء بسببها ومن خلالها الحياة فمثلا: القرآن يميّز للبشر بين العقل والجهل، الشهوات والغضب،

---

[1] نفس للمصدر، ج١٥، ص٨٣.

حتى يلامس وجدان كل واحد حقيقة نفسه وما بها من عقل وشهوة، أو عقل وغضب، والقرآن يذكر البشر بربه عن طريق إثارة الوجدان، وبلورة عقله، ثم يربط بين الإيمان بالله وبين ما يرى في الكون من آثار عظمة وجمال، ومن نقاط ضعف وعجز، ويربط بعدئذ بين كل ذلك وبين ضرورة التسليم لله ولرسالاته، كل تلك بصيرة يرى المرء من خلالها الحياة رؤية واضحة.

وإذا تعذر على المرء رؤية الحياة بسبب أو بآخر، فإن الله هو الذي يعطيه الهدى بصورة مجملة أو مفصلة، فيكشف له طبيعة الدنيا والآخرة وما فيهما من عوامل تقدم أو تخلف، حضارة أو دمار.

والبصائر والهدى تعطي البشر رفاهاً وسعادة هي: الرحمة التي ينزلها الله للمؤمنين باتباع البصائر والهدى»[1].

فهذا النص يظهر منه الترتب، اي أن البصائر من مختصات بعض من المؤمنين وهم من رأى الحياة بصورة تامة، وأما من لم يتسنى له ذلك، فإن الله سبحانه يمنحه الهدى، وبالتالي فالبصائر والهدى معاً أو إحداهما تهب الإنسان الرحمة.. لكن يبدو أن السيد الأستاذ عدل عن هذا الرأي قبيل إكمال تفسيره، حيث اعتبر في

---

[1] آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي. من هدى القرآن، ج٣، ص٥٢٧.

تفسير سورة الجاثية أن المحاور الثلاثة في عرض واحد من ناحية المستوى[1].

والذي عدل إليه هو الأقرب للتصوّر والظاهر من دلالة الآية، فالمحاور الثلاثة من ناحية المستوى في عرض واحد، وبالتالي فالآيات القرآنية للمؤمن -كما في نص الآية الأولى- والموقن -كما في نص الآية الثانية- بصائر وهدى ورحمة في آن.. نعم بينها طولية من ناحية التأثير، ففي المرتبة الأولى تأتي البصائر، ثم الهدى وهو الأثر الطبيعي لاتباع البصائر، وأخيراً الرحمة التي تكون أثراً للهداية، فهي آثار ثلاثة يتحصل عليها كل مؤمن موقن على نحو الترتب.. وإنما قيّدنا المؤمن بالموقن لتقيّده في الآية الثانية من سورة الجاثية، فالآية الأولى الواردة في سورة الأعراف اكتفت باشتراط الإيمان ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، وهي لولا غيرها من الآيات لدلت على مطلق الإيمان من غير قيد ولا شرط، ولكن القيد المنصوص عليه في الآية الثانية ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، جعلنا نفهم بأن مطلق الإيمان لم يكن هو المراد الجدي في الآية الأولى، وإنما الإيمان المقيد باليقين، وبذلك فالمؤمن المتيقن في إيمانه هو الذي يستفيد من القرآن بصائر وهدى ورحمة.. ولا يخفى ما لهذا الشرط من أهمية في مسيرة التعامل مع

---

[1] نفس المصدر، ج١٣، ص٨٩.

القرآن الكريم، إذ أن من يأتي محمّلا بالشكوك والأوهام لا يمكن أن يحرز هذه التأثيرات الثلاثة، أما من امتلأ قلبه باليقين فإن هذه الآثار تنقاد إليه بشكل أوتوماتيكي.

إذاً، فالبصائر والهدى والرحمة آثار للقرآن، لا تتأتى للقارئ للقرآن الكريم ما لم يكن متزوداً باليقين.. لكن ماذا تعني هذه الآثار -ما هي البصائر؟ ما المقصود بالهدى؟ وما هي الرحمة؟-، ولماذا جاءت بهذا الترتيب..؟

فالقرآن بصائر.. والبصائر جمع بصيرة وهي تعني: المعارف والمناهج والأفكار والرؤى اليقينية، التي هي في ذاتها يقين وتوصل الإنسان إلى اليقين، فهي مقابل البصر الذي يشاهد الأشياء حسياً على نحو يقيني، والبصيرة تشاهد الأفكار والأمور المعنوية على نحو يقيني أيضاً، ولقد أجاد في ذلك محمد رشيد رضا حيث قال: «وهذا يقابل البصر الذي تدرك به الأشياء الحسية... فالمعنى قد جاءكم في هذه الآيات الجلية بصائر من الحجج العقلية والكونية تثبت لكم عقائد الحق اليقينية التي يتوقف عليها نيل السعادة الأبدية»[1]..

كما أن الشعراوي أتقن عبارته في هذا التفسير، فقد خلص

---

[1] محمد رشيد رضا. تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، ج٧، ص٦٥٧.

إلى القول: «أما البصر فهو مهمة العين في الأمور الحسية، لكن هناك أمور معنوية لا تكتشفها إلا البصيرة، والبصيرة تضيء القلب بالنور حتى يستكشف تلك الأمور المعنوية، ولا يمتلك القلب البصيرة إلا حين يكون مشحوناً باليقين الإيماني.

والقرآن الكريم بصائر، لأنه يعطي ويمنح من يؤمن به ويتأمله بصائر ليجدد الأمور المعنوية وقد صارت مُبْصَرَة، وكأنه قادر على رؤيتها ومشاهدتها وكأنها عين اليقين»[1].

وإلى هذا الأصل (البصائر) تعود بعض الصفات كالموعظة، فقد قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ...﴾ [يونس:٥٧]، فالبصائر تأتي على هيئة مواعظ، والمواعظ القرآنية عبارة عن مجموعة من البصائر اليقينية.

والقرآن هدى.. والهدى: الدلالة الواضحة والتامة على الطريق المستقيم والمنهج الحق.. ولا شك أن هذا تماماً ما توفره البصيرة، فالبصيرة عبارة عن الرؤى والمناهج اليقينية التي توضح الطريق للإنسان، فإذا أصبح واضحاً كانت المسيرة فيه سليمة ومتسقة، وهذا ما تعنيه الهداية.

---

[1] الشيخ محمد متولي الشعراوي. تفسير الشعراوي، ج٨، ص٤٥٤١.

وإلى الهداية كأصل تعود بعض المواصفات أحدها الرشد، إذ أن الرشد هو النتيجة الطبيعة للهداية، ولذا جاء في قوله تعالى في سورة الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۞ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ [الجن:١-٢].

والقرآن رحمة: والرحمة: الخير الدنيوي والأخروي -إذ لا تقييد في الآية بالدنيا، وإطلاقها يقتضي الشمول للدنيا والآخرة-، وعبّر عنها القرطبي بالنعمة[1].. وبتعبير أدق الرحمة هي السعادة الأبدية والخير الوفير والنعمة الدائمة. وهي المؤدى الطبيعي للبصائر والهدى، فإذا استكشف الإنسان البصائر، وسار في الحياة بسببها على هداية ووضوح، حصل على السعادة في الدنيا والآخرة، وهذا هو سر الترتب في الآية، فالقرآن (بصائر وهدى ورحمة).

والقرآن شفاء.. والشفاء: طهارة وإزالة لسائر الأمراض النفسية والمعوقات الروحية، والفرق بين الشفاء والهداية، أن الهداية ترتبط بالعقل والشفاء يرتبط بالروح، وإنما قلنا ذلك لأن الهداية جاءت نتيجة للبصائر، والبصائر رؤى ومناهج تعبّد الطريق للعقل، وأما الشفاء فلأن الآية نصت على ارتباطه بالروح ﴿وَشِفَاءٌ لِمَا فِي

---

[1] أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. الجامع لأحكام القرآن، ج٧، ص٢٢٤.

الصُّدُورِ﴾ [يونس:٥٨].. وقد جمعت بينهما آية قرآنية أخرى، حيث قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت:٤٤]، فالقرآن هدى للعقل يضع أمامه المناهج والرؤى اليقينية ليقوده إلى اليقين، وشفاء للروح من الأمراض والأوبئة النفسية.. وشفاء الروح ينتج عنه تلقائياً سعادة واطمئنان وهو الرحمة، ولذا جاءت الرحمة في الحديث القرآني مترتبة على الشفاء، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢].

فيتحصل من كل ذلك أن الآثار القرآنية تتركز في (البصائر، والهدى، والشفاء، والرحمة)، ومنها تتفرّع بقية الآثار.

الخط الثالث: الموقف الإنساني تجاه القرآن

بما أن القرآن له تلك المكانة العظيمة والآثار القوية المشار إليها في الخطين السابقين، فمن الطبيعي أن يُطالب الإنسان تجاهه بموقف، وهذا الموقف كما يظهر من خلال التتبع للآيات القرآنية ينحل إلى ثلاثة محاور مركزية تعود إليها سائر المواقف والمسؤوليات التي تعرض لها القرآن، وهي:

الإيمان.. وهو وظيفة القلب.

التعقل.. وهو وظيفة العقل.

الإتباع.. وهو وظيفة الجوارح.

والإتباع متأخر عن الاثنين، إذ لولا الإيمان والتعقل لما كان هناك مجال للإتباع، فالإنسان يتبع ما يدركه ويؤمن به، ولكن لماذا قدّمنا الإيمان على التعقل..؟ فالمفروض أن القارئ يتعقل الفكرة بدءاً ثم يؤمن بها.. وهذا صحيح، ولكن التعامل الصحيح مع القرآن يتطلب في البداية إيماناً، إذ من دونه يتعذر على القارئ التعقل، باعتبار أن القرآن لا يهب معارفه وعلومه إلا بشرط الإيمان بل اليقين، كما سبق وأشرنا، فالبصائر والهدى الرحمة لا تكون إلا ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

فإذاً، وظائفنا تتركز في هذا الثلاثي على نحو الترتيب (الإيمان، والتعقل، والإتباع).. فماذا تعني هذه المفاهيم..؟

ماذا يعني الإيمان بالقرآن..؟

إن الإيمان بالقرآن كوظيفة ورد في آيات قرآنية عديدة، منها ما جاء في سورة البقرة حيث قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥]، وهي تبين أن الإيمان بالقرآن ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ من الأمور الراسخة عند الرسول ﷺ والمؤمنين بل من المسلمات الراكزة، ولذا عبّرت عنها الآيات بصيغة

الماضي ﴿آمَنَ﴾، وكأنها قضية تمت وثبتت وليست في حاجة لكلام أو مراجعة.

ومنها ما ورد في سورة الشورى من قوله تعالى: ﴿وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ [الشورى:١٥]، والخطاب فيها موجه للرسول ﷺ، وهو على نحو الإلزام، فالله سبحانه وتعالى يأمره بأن يعلن للملأ إيمانه ويجهر به، لا أن يؤمن به في الخفاء فقط، وذلك يبين مدى أهمية هذا الأمر، فالإيمان بالكتاب قضية مركزية وتعد من الأصول التي لا يُتنازل بحال، ولذا وجب الإعلان عنها صراحة أمام الرأي العام.

وهذا الإيمان لا ينبغي أن يكون سطحياً، وإنما يجب أن يتأصل ليصل إلى الأعماق، بأن يعبّر عن التسليم المطلق بأمرين:

التسليم بأن القرآن من عند الله سبحانه وتعالى.. وقد جاء ذلك صريحاً في قوله تعالى: ﴿...وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا...﴾ [آل عمران:٧].

التسليم بما جاء فيه من قيم وأحكام وتعاليم.. وقد صرّحت بذلك آيات من سورة الإسراء، حيث قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ۞ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ

تؤمنوا إنَّ الَّذين أُوتوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِه إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ۝ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء:١٠٦-١٠٩]، وهذه الآية تعبّر عن التسليم المطلق بما جاء في القرآن، فالسجود والبكاء تعبير صادق عن أعلى حالات الإيمان والتضامن والتسليم، ولهذا أصبح له أثر على مستوى النفس، بأن عمّق مستوى الخشوع، فالخشوع دليل على الصدق والتأثر الفعلي بالقيم والتعاليم الواردة في متن القرآن الكريم.

فالإيمان يعني التسليم المطلق والتام بالقرآن بصفته وحي من الله سبحانه وتعالى، وبما جاء فيه من قيم وأحكام وإرشادات.

فماذا يعني تعقل القرآن..؟

هذه الوظيفة أشارت إليها آيات متعددة، منها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء:١٠]، فالقرآن يتضمن بين ثناياه العديد من العبر والدروس والإرشادات، وينبغي أن يستذكرها الإنسان ولا يتغافل عنها بحيث تكون حاضرة في حياته العملية ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾، لكن هذا الاستذكار لا يكون صحيحاً إلا إذا كان عبر التعقل.

والتعقل في القرآن ليس بالأمر المستحيل أو العسير، بل هو

متيسّر لكل أحد، للميزة اللغوية التي يتميّز بها، فهو نزل بلغة فصيحة لا لبس فيها، وقد أكدت الآيات على ذلك في مطلع سورة يوسف من قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢]، وكذلك في سورة الزخرف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣].

وهذا المفهوم معناه واسع جداً كما هو ملاحظ من خلال الاستقراء للآيات القرآنية التي تحدثت عن التعقل، فهو لا يعني مجرد الفهم العام للرؤية القرآنية وخصوصياتها -كما يعنيه التفقه-، وإنما يشمل التحليل الدقيق لعناصرها وأبعادها، إضافة إلى أنه لا يستعمل فقط للدلالة على التأمل في الرؤية ومعرفة دلالاتها وتداعياتها الخارجية -الذي يعنيه التفكر-، وإنما يعني التأمل في التركيب الداخلي للرؤية بالإضافة إلى التأمل في الدلالات والتداعيات الخارجية.. ولذلك فإن وظيفتي التفقه[1] والتفكر[2] في القرآن التي أشارت إليها آيات قرآنية عدة تعود إلى هذا الأصل الأكبر، لأن معناه أشمل وأوسع[3].. وأما العلم فهو مقدمة للتعقل، كما هو

---

[1] كما في قوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام:٦٥].

[2] كما في قوله سبحانه: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة:٢١٩].

[3] للإستزادة التفصيلية في هذا الشأن يمكن مراجعة كتابنا (عن ثقافة النهضة.. دراسة في قيم العقل والروح والنهضة الاجتماعية) ففيه تحليل موسّع لهذه الإصطلاحات القرآنية الثلاثة.

واضح في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]، وهذا يدلنا على أن للتعقل المثالي شروطاً، وعلى رأسها العلم، فتعقل رؤى القرآن وبصائره يحتاج إلى مستوى علمي كافٍ، وإلا فإن عملية التعقل ستكون قاصرة.

وأخيراً ماذا يعني الإتباع..؟

الإتباع كمفهوم ووظيفة نصت عليه كثير من الآيات القرآنية المباركة، كقوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ...﴾ [الأعراف:٣]، وقوله سبحانه: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ...﴾ [الأنعام:١٥٥].

وبالطبع فإن هذا المفهوم حسب التعبير والاستخدام القرآني لا يعني مجرد الاستماع والفهم، وإنما يعني التقليد المطلق والتأثر الفعلي الذي يتحوّل إلى برنامج عملي في حياة الإنسان، فالآيات القرآنية التي تعرضت بالحديث عن هذا الاصطلاح تنتهي إلى أن المقصود منه حقيقة التقليد والإقتداء.. ولنأخذ بعض الأمثلة على ذلك:

يقول تعالى: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ [الإسراء:٦٣]، فهؤلاء ما استحقوا جهنم إلا لأنهم فعلوا ما يريده الشيطان منهم وقلّدوه، وإلا لو لم يفعلوا ذلك

فما الوجه في استحقاقهم العذاب.

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم:٣٦]، فالإتباع هنا يقابل العصيان، والعصيان يعني عدم تنفيذ ما يطلب من الإنسان، وبذلك فالإتباع يعني تنفيذ كل ما فيه القرآن على نحو مطلق.

وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١]، فالرسول ﷺ يُقرن محبة الله سبحانه وتعالى بطاعته، ولذلك فالإتباع يعني التصديق برسالة الرسول ﷺ والإقتداء به وطاعته.

كما يقول جلت قدرته: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الأنعام:٥٠]، فتطبيق الرسالة من قبل الرسول ﷺ بحذافيرها، والمداومة عليها والدعوة إليها، كل ذلك اتباع..

فالإتباع إذاً يعني التقليد الصادق والتأثر الحقيقي بكل ما جاء في القرآن الكريم من قيم وتعاليم وإرشادات وأحكام..

بذلك يتضح الموقف الإنساني من القرآن الكريم، حسب ما أراده القرآن وشرّع له، وهو يتركز في الثلاثي (الإيمان، التعقل،

الإتباع)، وذلك يعني أن الإنسان بكل قواه ينبغي أن يتفاعل مع القرآن بما يحمل من قيم وتعاليم، فالإيمان وظيفة القلب، والتعقل وظيفة العقل، والإتباع وظيفة الجوارح.

وإلى هنا ينتهي الحديث عن الخطوط الثلاثة التي أشرنا إليها في بداية البحث (الطبيعة الذاتية للقرآن، والمستوى التأثيري له، والموقف الإنساني تجاهه)، ومن خلالها نفهم القرآن كما ينبغي.. ولأن القرآن يتضمن هذه الأبعاد الواسعة، فيجب أن نسلك منهجاً علمياً حتى ندرك بعضاً من معانيه، ونتربى على إرشاداته، وهو ما سيتكفله الفصل الثاني من هذا الكتاب.

الفصل الثاني

معالم التفسير العلمي التربوي

إن الصورة العامة للمنهج -أو الفن- المتكفل باستخراج بصائر السعادة والهداية من القرآن، يتركز في (التفسير العلمي التربوي).. والعلمي إشارة إلى المنهج العملي القادر على استنباط المعاني والبصائر من القرآن.. والتربوي تأكيد على تحويل تلك البصائر إلى برنامج تربوي في المجال الفردي والاجتماعي.. فاستنباط بصائر القرآن يجب أن يستند إلى منهج علمي صحيح، والبصائر المستنبطة لا يصح أن تبقى حبيسة الذهن، وإنما يجب أن تتحوّل إلى برامج سلوكية يتربى عليها الفرد والمجتمع في حياته الخاصة والعامة.

لهذا سنضع أعيننا في هذا الفصل على المعالم الأساسية للمنهج العلمي، والمعالم الأساسية للمنهج التربوي.. وهما المنهجان اللذان نقول بضرورة اندماجهما في خط تفسيري واحد، للتحقق الاستفادة المثلى من القرآن.

فما هي معالم المنهج العلمي..؟

يستحسن بنا في البداية وقبل الخوض في تفاصيل المنهج، أن نتفهّم بعض الدواعي التي تفرض علينا سلوك طريقة علمية خاصة عند الرغبة في استظهار المعاني القرآنية.. ولعل المنطلق في ذلك أن المعرفة الدقيقة بالقرآن -مع أن القرآن مبين- عملية تحتاج إلى جهد خاص، بل هي عملية لا تخلو من صعوبة، وذلك لأمرين أساسيين:

١- إن للقرآن أسلوباً خاصاً مغايراً للأساليب الخطابية المعتادة، وإن كان مجراه متطابقاً مع المجرى العام للغة المتداولة والعرف السائد.. فأسلوب الخطاب وطرق العرض والدقة في التعبير والمتانة في البلاغة والتصويرات المتغايرة وما أشبه، كلها أعطت للقرآن أسلوباً أرقى من الأساليب المعتادة، ولهذا تحدّى الباري جل وعلا أهل اللغة العارفين بأصولها أن يأتوا بسورة من مثله.

حتى أن بعض العرب كان يفرق بينه وبين سائر الكلام بمجرد أن يسمع ولو آيات قليلة منه، كما حصل مع وفد اليمامة، ففي ذات مرة أقبل رسول الله ﷺ ومعه علي عليه السلام إلى مجلس من مجالس العرب، فدعاهم إلى دينه فقال أحدهم واسمه مفروق: وإلى م تدعو يا أخا قريش؟

فقال رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ

أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

قال مفروق: ما هذا من كلام أهل الأرض ولو كان من كلامهم عرفناه ثم قال: وإلى م تدعو أيضاً يا أخا قريش؟

فتلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

فقال مفروق: دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك[١].

فيلاحظ في هذه الواقعة أن مفروق وهو من كبار قومه، بمجرد أن سمع آية واحدة من سورة الأنعام، ميّز بينها وبين سائر الكلام، وليس ذلك بسبب اختلاف المفردات والألفاظ، وإنما بسبب تميّز الأسلوب القرآني.

٢- الضغط الشديد والإجمال في المعاني القرآنية.. فالمعاني

---

[١] آية الله العظمى السيد محمد الشيرازي. ولأول مرة في تاريخ العالم، ص١٢١.

والأفكار القرآنية واسعة وكثيرة، إلا أنها مضغوطة بشدة ومجملة، ولذلك تحتاج إلى عناية في إمعان النظر وطرق خاصة من التأمل، لفك ذلك الضغط وإبانة الإجمال، فمقطع صغير من آية يمكن أن يحتوي على الكثير من المعاني والإرشادات والقيم والأحكام.. حتى أن البعض من المتمردين على الوحي أعربوا عن عجزهم أمامه لفرط دقته ومتانة تعبيره عن المعاني.. فقدْ روى الطبرسي في الاحتجاج عن هشام بن الحكم أنه قال: اجتمع ابن أبي العوجا وأبو شاكر الديصاني وعبد الملك البصري وابن المقفع في بيت الله الحرام يستهزئون بالحاج ويطعنون بالقرآن فقال ابن أبي العوجا: تعالوا ننقض كل واحد منا ربع القرآن وميعادنا من قابل في هذا الموضع نجتمع فيه وقد نقضنا القرآن كله، فإن في نقض القرآن إبطالاً لنبوة محمد ﷺ، وفي إبطال نبوته إبطال الإسلام وإثبات ما نحن فيه، فاتفقوا فلما كان من قابل اجتمعوا عند بيت الله الحرام، فقال ابن أبي العوجا: فما زلت أفكر منذ افترقنا في هذه الآية: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف:٨٠]، فما قدرت أن أضم إليها في فصاحتها وجميع معانيها شيئاً، ولقد شغلتني عن التفكير في غيرها.

وقال عبد الملك البصري: وأنا منذ فارقتكم أفكر في هذه الآية: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ

دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج:٧٣]، ولم أقدر على الإتيان بمثلها.

وقال أبو شاكر الديصاني: وأنا منذ فارقتكم أفكر في الآية: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]، ولم أقدر على الإتيان بمثلها.

وقال ابن المقفع: يا قوم إن هذا القرآن ليس من جنس كلام البشر وأنا منذ فارقتكم أفكر في الآية: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود:٤٤]، فلم أبلغ غاية المعرفة بها ولم أقدر على الإتيان بمثلها، وأضاف هشام بن الحكم إلى ذلك: فبينما هم في ذلك إذ مر بهم جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فقال: ﴿لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨][1].

فالقرآن من جهة يخاطب المكلفين بأسلوب متميّز ودقيق، ومن جهة أخرى يختص أسلوبه بالضغط الشديد للمعاني والأفكار

---

(١) الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي. مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٢، ص١٤٣.

والإجمال في الأحكام، لذلك فإن الرغبة في فهم تلك المعاني تفتقر إلى معرفة دقيقة بذلك الأسلوب، وقدرة على فك ضغطه وإبانة إجماله، وذلك لا يتحصل إلا بواسطة السير على ضوء منهج علمي واضح.

معالم المنهج العلمي

إن أهم خواص هذا المنهج تتركز في معلمين:

المعلم الأول: (اعتماد النصوص الرديفة -الروايات-)..

فالمعاني المضغوطة في الآيات لا يمكن فك ضغطها بالوجه الصحيح، والقيم والأحكام المجملة لا يمكن إبانة المراد الحقيقي منها، إلا بالاستعانة بالروايات الواردة عن المعصومين عليهم السلام، فالروايات بصفتها نصوص رديفة للقرآن الكريم تسير جنباً إلى جنب مع آياته، ومن دونها يتعسر الوصول للمعاني القرآنية الحقيقية..

وقد أكد الأئمة عليهم السلام على ذلك كثيراً في حواراتهم مع أرباب المذاهب والتيارات الفكرية المعاصرة لهم، فقد روى شعيب بن أنس أن الصادق عليه السلام قال لأبي حنيفة: «أنت فقيه العراق؟ قال: نعم، قال:فبأي شيء تفتيهم؟ قال: بكتاب الله وسنة نبيه. قال: تعرف كتاب الله حق معرفته، وتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال:

نعم. قال: يا أبا حنيفة لقد ادعيت علماً -ويلك- ما جعل الله ذلك إلا عند أهل الكتاب الذين أنزل الله عليهم، ويلك ما هو إلا عند الخاص من ذرية نبينا ﷺ وما ورثك من كتابه حرفاً»[1].

وروى زيد الشحام قال: «دخل قتادة على أبي جعفر عليه السلام فقال له: أنت فقيه أهل البصرة؟ فقال: هكذا يزعمون. فقال: بلغني أنك تفسر القرآن. قال: نعم. إلى أن قال: يا قتادة إن كنت قد فسرت القرآن من تلقاء نفسك فقد هلكت وأهلكت، وإن كنت فسرته من الرجال فقد هلكت وأهلكت، يا قتادة -ويحك- إنما يعرف القرآن من خوطب به»[2].

فمن دون العودة إلى كلام المعصوم تصبح الآراء المنتزعة من الآيات مجرد ضرب من الكلام وإن مال إليها الذوق واستحسنها، إذ بين سطور الآيات خفايا ودقائق لا يطّلع عليها إلا أهلها، وهم الذين في استطاعتهم توجيه الآية إلى مصبّها الحقيقي.. ومن الشواهد على ذلك ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨]، فقد روى العياشي في تفسيره عن زرقان صاحب ابن أبي داود وصديقه بشدة قال: رجع ابن أبي داود ذات

---

(١) آية الله العظمى السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي. البيان في تفسير القرآن، ص٢٦٧.

(٢) نفس المصدر.

يوم من عند المعتصم وهو مغتم، فقلت له في ذلك فقال: وددت اليوم أني قد مِتّ منذ عشرين سنة، قال: قلت له: ولم ذاك؟ قال: لما كان من هذا الأسود أبا جعفر محمد بن علي بن موسى اليوم بين يدي أمير المؤمنين المعتصم، قال: قلت: وكيف كان ذلك؟ قال: إن سارقاً أقر على نفسه بالسرقة، وسأل الخليفة تطهيره بإقامة الحد عليه، فجمع لذلك الفقهاء في مجلسه، وقد أحضر محمد ابن علي، فسألنا عن القطع في أي موضع يجب أن يقطع؟ قال: فقلت: من الكرسوع لقول الله في التيمم: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ [النساء:٤٣] واتفق معي على ذلك قوم.

وقال آخرون: بل يجب القطع من المرفق، قال: وما الدليل على ذلك؟ قالوا: لأن الله لما قال: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ [المائدة:٦]، في الغسل دل على ذلك أن حد اليد هو المرفق.

قال: فالتفت إلى محمد بن علي فقال: ما تقول في هذا يا أبا جعفر؟ فقال: قد تكلم القوم فيه يا أمير المؤمنين، قال: دعني بما تكلموا به أي شيء عندك؟ قال: اعفني عن هذا يا أمير المؤمنين، قال: أقسمت عليك بالله لما أخبرت بما عندك فيه، فقال: أما إذا أقسمت علي بالله إني أقول: إنهم أخطأوا في السنة، فإن القطع يجب أن يكون من مفصل أصول الأصابع فتترك الكف، قال: وما الحجة

في ذلك؟ قال: قول رسول الله ﷺ: السجود على سبعة أعضاء: الوجه، واليدين، والركبتين، والرجلين، فإذا قطعت يده من الكرسوع أو المرفق لم يبق له يد يسجد عليها، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن:١٨]، يعني هذه الأعضاء السبعة التي يسجد عليها ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ وما كان لله لم يقطع. قال: فأعجب المعتصم ذلك فأمر بقطع يد السارق من مفصل الأصابع دون الكف. قال ابن أبي داود: قامت قيامتي وتمنيت أني لم أكُ حياً[1].

فهذه التجربة وأمثالها تبين مستوى الضغط والإجمال في المعاني القرآنية، لدرجة أن فكّه وإبانته تطلّب توسّلاً بنوع خاص من الشواهد القرآنية والروائية لا أي شاهد يمكن أن يتصوّره القارئ للقرآن، ولهذا فإن الروايات بصفتها نص رديف تدخل كأساس لفهم معاني القرآن الحقيقية، وليست مجرد كلمات يُستأنس بها كما هو مسلك بعض المفكرين المعاصرين.. ففي حوار جمعنا مع الدكتور محمد شحرور حول مشروعه القرآني الذي صاغه في كتابه (الكتاب والقرآن قراءة معاصرة)، توقفنا عند أثر السنة في فهم القرآن،

---

[1] أبو النظر محمد بن مسعود بن عياش السلمي السمرقندي المعروف بالعياشي. تفسير العياشي، ج١، ص٣١٩.

وعندها قال إن عقولنا المجردة من أي ظلال روائي مهيأة لفهم معاني القرآن، والسنة نستأنس بها فقط.. أما نحن فنقول بأن السنة المعتبرة نافذة أساسية نطل من خلالها على القرآن، ومن دونها يصعب فهم معانيه الحقيقية، وذلك لا يعني بالطبع رفض أصالة الظهور وعدم القول بحجية ظواهر الكتاب، بل لا بد أن نتمسك بها خاصة عند انعدام الروايات أو إجمالها.

وللتمثيل فقط يمكن أن نتوقف عند مقطع قرآني من سورة النمل، فقد قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ۝ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل:١٧-١٩].

إن في هذه الآيات تساؤلات عديدة يفرضها منهج العرض القرآني، من بينها التناسب بين اعتراض النملة وتبسم النبي سليمان ﷺ، فالنملة في كلامها للنمل كأنها تعترض على سليمان، إذ أنها تتهمه وجنوده بالاعتداء (يحطمنّكم) بشكل يتنافى مع مقام النبوّة (وهم لا يشعرون)، مع أن النبي معصوم لا يقع منه الظلم بحجة

أنه لا شعوري، وسليمان (عليه السلام) سمع هذا الاعتراض ومع ذلك تبسّم، والتبسّم لا يتناسب مع الاعتراض.. هذا ما يظهر من الآية، فهل هناك فعلا تناسب بين الاعتراض والتبسّم، أم أن في البين حقيقة أخرى لا بد من الوقوف عليها كيما يتسنّى لنا التوصل إلى إجابة علمية على هذا التساؤل..؟

ثم ما علاقة التبسّم بالشكر، فسليمان (عليه السلام) بعد أن تبسّم توجّه بالشكر إلى الله سبحانه وتعالى على ما أنعم عليه وعلى والديه.. فلماذا بعد أن تبسّم شكر، لماذا لم يسبّح مثلاً أو يهلل أو يكبّر أو يأتي بأي عمل عبادي آخر، لماذا الشكر دون غيره من أنواع الذكر..؟

هذه تساؤلات لا يمكن الإجابة عليها من دون الاستناد إلى الروايات.. إذ أن في هذه الآيات ضغطاً ملحوظاً للعديد من المعاني والتوجيهات، ولا يمكن فك هذا الضغط إلا بمعونة النصوص الرديفة الواردة عن المعصومين (عليهم السلام)، كما سنشاهد الآن.

في بداية الأمر إن الذي دعا النملة لتوجيه تحذيرها للنمل عظمة المشهد الذي ظهر فيه سليمان (عليه السلام) مع جنوده، وهو مشهد تشرأب له أعناق العقلاء فما بالك بالنمل، حتى أن الجنود المرافقين لسليمان أفصحوا عن استغرابهم لعظمة ما رأوا، فقد روى العلامة

المجلسي بالإسناد إلى الشيخ الصدوق بإسناده إلى أبي حمزة عن الأصبغ قال: خرج سليمان بن داود عليه السلام من بيت المقدس مع ثلاثمائة ألف كرسي عن يمينه من الإنس وثلاثمائة ألف كرسي عن يساره عليها الجن، وأمر الطير فأظلتهم[1]، وأمر الريح فحملتهم حتى وردت بهم المدائن، ثم رجع وبات في اصطخر، ثم غدا فانتهى إلى جزيرة بركاوان[2]، ثم أمر الريح فخفضتهم حتى كادت أقدامهم يصيبها الماء، فقال بعضهم لبعض: هل رأيتم ملكاً أعظم من هذا؟ فنادى ملك من السماء: لثواب تسبيحة واحدة أعظم مما رأيتم[3].

إن العظمة في هذا المشهد -عظمة النعمة التي أوتيها سليمان- التي استفزّت عقول الجنود، هي نفسها حرّكت مشاعر

---

[1] حتى حجبت عنهم أشعة الشمس، ولهذا عندما تفقد الطير اكتشف تغيّب الهدهد بسبب تسرّب شيء من الأشعة من فجوة هي عبارة عن المكان المخصص للهدهد، فقد جاء في تفسير القمي: «كان سليمان إذا قعد على كرسيّه جاءت جميع الطيور التي سخّرها الله لسليمان فتظل الكرسي والبساط بجميع من عليه من الشمس فغاب عنه الهدهد من بين الطير فوقع الشمس من موضعه في حجر سليمان عليه السلام فرفع رأسه وقال كما حكى الله ﴿مَا لِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ...﴾ [النمل:٢٠]». [أبو الحسن علي بن إبراهيم القمي. تفسير القمي، ج٢ ص١٢٧].

[2] يقول ياقوت: ناحية بفارس.

[3] الشيخ محمد باقر المجلسي. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، ج١٤، ص٧٣.

الخوف عند ملكة النمل -بإذن الله سبحانه ليقدِّم بذلك درساً لنبيّه- فسارعت بتحذيرهم من الاعتداء، فتبسّم سليمان ثم شكر الله جلّ وعلا.. ومن هنا انطلقت التساؤلات السابقة، التي لا يمكن الإجابة عليها إلا بالروايات.. فماذا تقول الروايات في ذلك..؟

روى الشيخ الصدوق في معاني الأخبار وعلل الشرائع -والمجلسي في البحار نقلاً عنه- عن عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب القرشي، عن منصور بن عبدالله الأصفهاني عن علي بن مهرويه القزويني، عن داود بن سليمان الغازي قال: سمعت علي بن موسى الرضا عليه السلام يقول عن أبيه موسى بن جعفر عليه السلام عن أبيه جعفر بن محمد عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا﴾ [النمل:١٩].

قال: لما قالت النملة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾ [النمل:١٨]، حملت الريح صوت النملة إلى سليمان وهو مارّ في الهواء والريح قد حملته فوقف وقال: عليّ بالنملة، فلما أتي بها قال سليمان: يا أيتها النملة أما علمت أني نبي الله وإني لا أظلم أحداً؟

قالت النملة: بلى، قال سليمان: فلم حذرتيهم ظلمي؟ وقلت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾؟

قالت النملة: خشيت أن ينظروا إلى زينتك فيفتتنوا بها

فيبعدوا عن الله تعالى ذكره.

ثم قالت النملة: أنت أكبر أم أبوك داود؟ قال سليمان عليه السلام: بل أبي داود.

قالت: فلِمَ زيد في حروف اسمك حرف على حروف أبيك داود؟

قال سليمان: ما لي بهذا علم.

قالت: لأن أباك داود داوى جرحه بود فسمّي داود وأنت يا سليمان أرجو أن تلحق بأبيك.

ثم قالت النملة: هل تدري لَمَ سخرت لك الريح من بين سائر المملكة؟

قال سليمان: ما لي بهذا علم.

قالت النملة: يعني -عز وجل- بذلك: لو سخّرت لك جميع المملكة كما سخّرت لك هذه الريح لكان زوالها من يدك كزوال الريح، فحينئذ تبسّم ضاحكاً من قولها[1].

---

[1] الشيخ أبو جعفر الصدوق محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي. معاني الأخبار، ص٢٣٣. وعلل الشرائع، ص٣٥. والشيخ محمد باقر المجلسي. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، ج١٤ ص٩٢.

فهذه الرواية فكّت الضغط الملحوظ في الآية، فقد بيّنت لنا بأن تبسّم سليمان عليه السلام لم يكن بسبب تحذير النملة لسائر النمل من ظلمه، وإنما لأنه أدرك أن جميع تصرّفات النملة ما هي إلا رسائل توجيهية له من الله سبحانه وتعالى، وأهم هذه الرسائل أن كل ما لديه من نِعَم ليس وليد قدرته الذاتية وإنما هي عطاءاتٌ ومِنَنٌ من الله سبحانه، حتى اليسير منها كالمفارقة بين اسمه واسم أبيه، ولأن النِّعم لا تدوم إلا بالشكر -لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧]-، كان المناسب أن يتوجّه سليمان عليه السلام لربه بخصوص الشكر فقال كما في الآية: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ...﴾ [النمل:١٩].. والدروس في هذه الآيات كثيرة والملاحظات متعددة ولكنّي أكتفي بذلك لكفايته كشاهد يدلل لنا على موقعية الروايات من الآيات القرآنية، وأن المنهج الصحيح لفهم أسلوب الخطاب القرآني وفك المعاني المضغوطة والأفكار المجملة فيه، لا بد أن يعتمد على الروايات.

المَعْلَم الثاني: (الإحاطة بخواص الخطاب القرآني)..

فمن خلال المتابعة التفصيلية والمستمرة للطرق التي يعرض بها القرآن الكريم الأفكار والمعاني، يتضح أن له طرقاً خاصة

يعتمدها غالباً في إيصال مراداته إلى القرّاء والمكلفين، وكلّما كثُرَتْ متابعات القارئ كلّما قويتْ خبرته في معرفة هذه الطرق، كما يمكن التعرّف عليها بشكل دقيق من خلال المراقبة المستمرة لتجارب أهل الخبرة وذوي الاختصاص في الشأن القرآني، أو من خلال التأمل في تفسيرات أهل البيت عليهم السلام للآيات، وبالتالي فاستنباط المعاني القرآنية بحقيقتها يتطلب معرفة دقيقة بهذه الطرق.. ويمكن لنا هنا الإشارة إلى بعضٍ منها على سبيل التمثيل فقط لا الاستغراق:

اختيار المفردات والصيغ المعبّرة عن دقائق المعاني.. فالسور القرآنية تحتمل معاني عظيمة ودقيقة جداً، وهذه المعاني تتراكم بين ثنايا الآيات وتنضغط فيها، ويمكن استخراجها وإبرازها من خلال التأمل في تراكيب الصيغ والمفردات الخاصة المستخدمة بل وحتى الحروف.. وللتطبيق سأختار هذه الآية من سورة الأنبياء:

يقول تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ ۝ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨].

إن هذه الآية تريد أن تؤكد لنا على معنى هام، وهو أن القوة الغيبية حاضرة وبصورة دائمة ودقيقة في حياة الإنسان، وقادرة

على التأثير فيها، ولذلك ينبغي له أن يعوّل على هذه القوة فقط ويدع غيرها جانباً.. لكن لاحظ كيف تعبّر الآيات عنها، إن ذلك يتضح من خلال التأمل في طبيعة المفردات والصيغ المستخدمة.

في صدر الآية يقول تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، فعندما خرج يونس عليه السلام من القرية كان غضباناً على قومه بسبب ما هم عليه من الجحود والكفر بالله العظيم، ولكنه لم يستأذن الله سبحانه في خروجه، وقد عُدّ هذا عصياناً منه بمعنى ترك الأولْى -كما هو مشهور الرأي عند متكلمي الشيعة، وأن كان هناك من العلماء من لا يقول بذلك، ويؤكد بأن المعصوم لا يمكن أن يترك حتى الأولْى، وإن كل ما يصدر منه إنما هو وفق حكمة خاصة، وهو مبنى الإمام الشيرازي قدس سره[1]-، والآية في بداية تأكيدها على الحضور الغيبي تقول بأن يونس عليه السلام مهما ابتعد فإن الله سبحانه قادر عليه وعلى الوصول إليه، فقوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ تستبطن إشارة مفادها أن القوة الإلهية قادرة عليه لا محالة.

ثم تسترسل الآية لتقود الذهن إلى ملاحظة جديرة بالانتباه تسير في نفس السياق، حيث يقول تعالى: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾،

---

[1] راجع: آية الله العظمى السيد محمد الشيرازي. فقه العقائد.

فالآية لم تكتف بقولها (فنادى)، وإنما أكدت على الموقع الذي صدر منه النداء، وهو الظلمات، كما لم تقتصر على ذكر الجانب المهم من المشكلة وهي بطن الحوت، وإنما جاءت بما يلازمها من مشاكل، لتبين للإنسان القدرة الفائقة للغيب.

فالظلمات هي عبارة عن ظلمة الليل -لأنه نادى ربه في جنح الليل-، وظلمة البحر الذي كان يسبح فيه الحوت، وظلمة بطن الحوت[1].. وهنا الآية تقول لنا من خلال هذه المفردة الدقيقة والمعبّرة أن يونس عليه السلام رغم أنه كان في ذلك المكان البعيد الخفي المظلم، إلا أن القوة الغيبية وصلت إليه وسمعت نداءه، فكيف بمن يعيش على ظهر الأرض، وذلك تأكيد آخر على مستوى الحضور الغيبي في حياة الإنسان.

بعد ذلك يقول تعالى: ﴿أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ﴾.. فيونس عليه السلام عندما نادى في الظلمات لم يناد إلا بالوحدانية ونفي الشريك، وكأنه يقول إن لا أحد مهما كانت قوته قادر على الدفع عن الإنسان عندما يقع في المحن، فلا يقوى على ذلك إلا الله سبحانه وتعالى، ولهذا ينبغي التعويل عليه فقط لا غير.

---

[1] الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي. مجمع البيان في تفسير القرآن. ج٧، ص٨٣.

ثم تأتي النتيجة لتبين صدق القوة الغيبية في حضورها، وأن حضورها ليس صوريّاً بل هو واقعي، ففي مطلع الآية الثانية يقول سبحانه: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ﴾.. والسؤال هنا: أن يونس عليه السلام عندما عوّل على الغيب فقط، هل خاب أو لا أقل تأخرت الإجابة..؟ بالطبع كلا، فقد جاءت الإجابة سريعة ومباشرة، وهذه هي طريقة الغيب عند تعاطيه مع المؤمنين به، وذلك يفهم من قوله تعالى: (فاستجبنا)، فلو جاء الجواب بـ(ثم) بدل الفاء بحيث كانت الآية هكذا (ثم استجبنا)، لعلمنا أن الإجابة تأخرت شيئاً ما، لأن (ثم) تفيد التراخي، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ [عبس:٢٢]، حيث أن الإنسان يبقى زمناً طويلاً في القبر حتى يأذن الله سبحانه بالنشور، أما الفاء فإنها تستخدم للمباشرة بلا تراخ أو تأخير، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ [عبس:٢١]، فالإقبار يأتي مباشرة بعد الموت وبلا فاصلة، وكذلك كانت الإجابة لنداء يونس عليه السلام، فهو بمجرد أن نادى وصله الجواب.. وكل ذلك للتأكيد على الحضور الغيبي ومستوى تأثيره على حياة الإنسان.

وأخيراً تختم الآية بقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾، لتؤكد على أمرين:

الأول: أن النجاة والإجابة تكون للمؤمن وهو من عوّل

على الغيب وآمن به حقيقة لا صورياً.

والثاني: أن ما جرى مع يونس عليه السلام ليس مختصاً به وإنما هو سنة إلهية يمكن أن تنطبق على أي إنسان إذا راعى شروطها.

إن هذه المعاني العديدة والعظيمة الظاهرة في هاتين الآيتين المختصرتين، ما كنّا لنستخرجها من دون التأمل في المفردات والصيغ الدقيقة الواردة فيهما.

تبيين النظريات المضغوطة -أو المجملة- بالتجارب المفصلة..
فالقرآن الكريم يمتلئ بالكثير من النظريات التربوية الفردية والاجتماعية، لكنها نظريات مضغوطة بشكل كبير، إلا أن في متن القرآن الكثير من التجارب التي مرّت بها الأمم وعاشها أشخاص تاريخيون، وهذه التجارب في الحقيقة ترجمة واقعية لتلك النظريات، ولهذا فإن المتتبع في آيات القرآن الكريم والمتأمل في معانيها، عندما يقف على أي نظرية قرآنية، ينبغي له أن يبحث بين الآيات عن التجربة التاريخية التي تقف معها في سياق واحد، حتى يستطيع أن يتفهّم حقيقة النظرية ومستواها وأهدافها وكيفية تجسدها على أرض الواقع، باعتبار أن النظريات القرآنية ليست نظريات مثالية لا واقع لها، وإنما هي واقعية تتفاعل بشكل كلي مع الواقع الخارجي.

فالتجارب التاريخية المفصلة المذكورة بنحو متقطع في متن

الآيات، لسان ناطق بحقيقة النظريات والرؤى القرآنية المضغوطة، وهذا وجه من الوجوه التي يشملها قول الإمام علي (عليه السلام): «وذكر أن الكتاب يصدِّق بعضُه بعضاً»[1]، وقوله أيضاً في وصف القرآن: «وينطق بعضُه ببعض ويشهد بعضُه على بعض»[2].

وكمثال تطبيقي سنأخذ مقطعاً قرآنياً مختصراً يحمل بين طياته رؤية قرآنية تربوية شديدة الضغط، فقد جاء في سورة الشمس قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس:٧-١٠].

---

[1] كاظم محمدي ومحمد دشتي. المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة، ص١٩.

[2] نفس المصدر، ص٤٨.. وقد رويت رواية عن عبدالله بن عباس بنفس المعنى، لكنها مغايرة في اللفظ: (القرآن يفسر بعضه بعضاً)، كما أورد الشهرستاني في كتابه (تنزيه التنزيل) نص ما ورد عن ابن عباس باعتباره رواية، وقد استقرب البعض كونها رواية فعلاً، لاحتمال أن يكون أبن عباس قد أخذها عن النبي (صلى الله عليه وآله) وأمير المؤمنين (عليه السلام) نتيجة لعلاقته القوية معهما في مسائل القرآن، ولسكوت العلماء عما ذكره الشهرستاني مع ما هو المعروف من شأنهم في التحقيق الذي يدفعهم في كثير من الأحيان على التوقف عند الجزئيات فما بالك بمثل هذه الرواية. [يراجع في ذلك: آية الله العظمى ناصر مكارم الشيرازي. نفحات القرآن، ج١، ص٩]. إلا أن هذا الاستقراب بعيد، لأن النص المعتبر الوارد في المقام على لسان الإمام علي (عليه السلام) نطق بغيره، ولورود احتمال كبير مفاده أن يكون ابن عباس نقل ما سمعه من الإمام بالمعنى، والشهرستاني نقله عنه من غير تدقيق.

إن هذه الآيات تبيّن أن مركز حركة الإنسان هي النفس، وهي مستودع للفجور والتقوى، والمتحكّم الأساس في بمسيرة الإنسان، فإن زكّاها وطهّرها من الذنوب قادته إلى النجاح والفلاح دنياً وآخرة، وإن أهملها وأخفاها بالمعاصي خسر دنياً وآخرة.. فهنا رؤية أشبه بمعادلة: (التزكية طريق النجاح، والإهمال طريق الفشل)، وهي تعني أن أي فرد -أو أمة- إذا زكّى نفسه وكرّس فيها الحسنات وطهّرها من المعاصي بالتوبة، قادته إلى النجاح، أما إذا أهملها حتى امتلأت فيها السيئات وتكرّست المعاصي، فلن يكون منتهاه غير الفشل.. إلا أنها رؤية مضغوطة تحتاج إلى مزيد بيان من خلال أمثلة تطبيقية واقعية، ونحن لو تصفحنا الآيات القرآنية لوجدنا الكثير من التجارب التي تصدّق هذه الرؤية، فتجربة قوم يونس عليه السلام ترجمة واقعية للفصل الأول من هذه الرؤية أي النجاح، وتجربة قوم صالح عليه السلام ترجمة واقعية للفصل الثاني منها أي الفشل.. كيف..؟

أما قوم النبي يونس بن متى عليه السلام والمعروف بـ(ذو النون)، فقد قال الباري جل وعلا عنها: ﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [يونس:٩٨].. فلما طهّروا أنفسهم من الذنوب وتابوا إلى الله سبحانه وتعالى (آمنوا)، رُفع عنهم العذاب

ومُتعوا حتى الموت، وذلك كناية عن النجاح.. وقد ورد في هذا الشأن رواية صحيحة[1] في تفسير القمي؛ رواها علي بن إبراهيم القمي عن أبيه إبراهيم بن هاشم عن ابن أبي عمير عن جميل بن دراج، قال: قال لي أبو عبدالله عليه السلام: ما رد الله العذاب إلا عن قوم يونس، وكان يونس يدعوهم إلى الإسلام فيأبوا ذلك، فهم أن يدعو عليهم وكان فيهم رجلان عابد وعالم، وكان اسم أحدهما مليخا والآخر اسمه روبيل، فكان العابد يشير على يونس بالدعاء عليهم، وكان العالم ينهاه ويقول لا تدع عليهم فإن الله يستجيب لك ولا يحب هلاك عباده، فقبل قول العابد ولم يقبل من العالم، فدعا عليهم فأوحى الله -عز وجل- إليه يأتيهم العذاب في سنة كذا وكذا في شهر كذا وكذا في يوم كذا وكذا فلما قرُب الوقت خرج يونس من بينهم مع العابد وبقي العالم فيها، فلما كان في ذلك اليوم نزل العذاب، فقال العالم: يا قوم افزعوا إلى الله فلعله يرحمكم ويرد العذاب عنكم، فقالوا: كيف نصنع؟ قال: اجتمعوا واخرجوا إلى المفازة وفرقوا بين النساء والأولاد وبين الإبل وأولادها وبين البقر وأولادها وبين الغنم وأولادها ثم ابكوا وادعوا، فذهبوا وفعلوا ذلك

---

[1] واعتبرها البعض حسنة لعدم ورود توثيق صريح لإبراهيم بن هاشم من قبل الرجاليين، إلا أن الكثير عدّوه من الثقات لقرائن عديدة منها رواية إبنه -الثقة الجليل- عنه الكثير جداً من الروايات، ونشره لحديث الكوفيين في قم.

وضجوا وبكوا، فرحمهم الله وصرف عنهم العذاب وفرق العذاب على الجبال وقد كان نزل وقرب منهم[1].

فهؤلاء راجعوا أنفسهم وتابوا إلى الله سبحانه توبة نصوحة، حتى أن عبدالله بن مسعود قال: «بلغ من توبة أهل نينوى أن يُرادّوا المظالم بينهم حتى كان الرجل ليأتي الحجر وقد وضع عليه أساس بنيانه فيقتلعه ويردّه»[2]. لذلك كان منتهاهم النجاح.. فهذه التجربة ترجمة فعلية وواقعية لقوله تعالى في سورة الشمس: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾.

وأما قوم النبي صالح عليه السلام قد قال جلت قدرته عنهم: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود:٦٥]، وقد كان بإمكانهم الرجوع إلى أنفسهم وتطهيرها بالتوبة، حتى بعد ارتكاب المعصية وعقر الناقة، بل وحتى بعد نزول العذاب، إلا أنهم أهملوها فضاعت وانتهى بهم الأمر إلى الفشل.

والذي يكشف خباثة نفسياتهم ومستوى تدنِّيها، أن الله

---

[1] أبو الحسن علي بن إبراهيم القمي. تفسير القمي، ج١، ص٣١٧.

[2] الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي. مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٥، ص١٧٣.

سبحانه رأفة بهم أعطاهم مهلة كافية (ثلاثة أيام) ونبّههم بواسطة علامات على دنو العذاب، ومع ذلك أصرّوا على المعصية و لم يتوبوا، بل كانوا يزدادون إصراراً لدرجة أنهم تحنّطوا وتكفّنوا في الأيام الثلاثة، وكأنهم يستعدون للعذاب لا مبالين وإنما مبارزين لله العزيز القهّار..

وقد روى تفصيل هذه التجربة الشيخ الكليني عن على بن محمد، عن علي بن العباس، عن الحسن بن عبد الرحمن، عن علي بن أبي حمزة، عن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قلت له: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ۝ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ۝ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر:٢٣-٢٥]. قال: هذا بما كذبوا به صالحاً وما أهلك الله -عز وجل- قوما قط حتى يبعث إليهم قبل ذلك الرسل فيحتجوا عليهم فبعث الله إليهم صالحاً فدعاهم إلى الله فلم يجيبوا وعتوا عليه وقالوا: لن نؤمن لك حتى تخرج لنا من هذه الصخرة ناقة عشراء وكانت الصخرة يعظمونها ويعبدونها ويذبحون عندها في رأس كل سنة ويجتمعون عندها فقالوا له: إن كنت كما تزعم نبياً رسولاً فادع لنا إلهك حتى تخرج لنا من هذه الصخرة الصماء ناقة عشراء، فأخرجها الله كما طلبوا منه. ثم أوحى الله تبارك وتعالى إليه أن

يا صالح قل لهم: أن الله قد جعل لهذه الناقة [من الماء] شرب يوم ولكم شرب يوم وكانت الناقة إذا كان يوم شربها شربت الماء ذلك اليوم فيحلبونها فلا يبقى صغير ولا كبير إلا شرب من لبنها يومهم ذلك فإذا كان الليل وأصبحوا غدوا إلى مائهم فشربوا منه ذلك اليوم ولم تشرب الناقة ذلك اليوم فمكثوا بذلك ما شاء الله، ثم إنهم عتوا على الله ومشى بعضهم إلى بعض وقالوا: اعقروا هذه الناقة واستريحوا منها، لا نرضى أن يكون لنا شرب يوم ولها شرب يوم، ثم قالوا من الذي يلي قتلها ونجعل له جعلا ما أحب، فجاءهم رجل أحمر، أشقر، أزرق ولد زنا لا يعرف له أب يقال له: قدار، شقي من الأشقياء مشؤوم عليهم فجعلوا له جعلاً.

فلما توجهت الناقة إلى الماء الذي كانت ترده تركها حتى شربت الماء وأقبلت راجعة فقعد لها في طريقها فضربها بالسيف ضربة فلم تعمل شيئا فضربها ضربة أخرى فقتلها وخرت إلى الأرض على جنبها وهرب فصيلها حتى صعد إلى الجبل فرغى ثلاث مرات إلى السماء وأقبل قوم صالح فلم يبق أحد منهم إلا شركه في ضربته واقتسموا لحمها فيما بينهم فلم يبق منهم صغير ولا كبير إلا أكل منها فلما رأى ذلك صالح أقبل إليهم فقال: يا قوم ما دعاكم إلى ما صنعتم أعصيتم ربكم، فأوحى الله تبارك وتعالى إلى صالح (عليه السلام) أن

قومك قد طغوا وبغوا وقتلوا ناقة بعثتها إليهم حجة عليهم و لم يكن عليهم فيها ضرر وكان لهم منها أعظم المنفعة فقل لهم: إني مرسل عليكم عذابي إلى ثلاثة أيام فإن هم تابوا ورجعوا قبلت توبتهم وصددت عنهم وإن هم لم يتوبوا و لم يرجعوا بعثت عليهم عذابي في اليوم الثالث، فأتاهم صالح عليه السلام فقال: يا قوم إني رسول ربكم إليكم وهو يقول لكم: إن أنتم تبتم ورجعتم واستغفرتم غفرت لكم وتبت عليكم، فلما قال لهم ذلك كانوا أعتا ما كانوا وأخبث وقالوا: ﴿يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنْ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٧٧]. قال: يا قوم إنكم تصبحون غدا ووجوهكم مصفرة واليوم الثاني وجوهكم محمرة واليوم الثالث وجوهكم مسودة فما أن كان أول يوم أصبحوا ووجوههم مصفرة فمشى بعضهم إلى بعض. وقالوا: قد جاءكم ما قال لكم صالح، فقال العتاة منهم: لا نسمع قول صالح ولا نقبل قوله وإن كان عظيماً، فلما كان اليوم الثاني أصبحت وجوههم محمرة فمشى بعضهم إلى بعض فقالوا: يا قوم قد جاءكم ما قال لكم صالح، فقال العتاة منهم: لو أهلكنا جميعاً ما سمعنا قول صالح ولا تركنا آلهتنا التي كان آباؤنا يعبدونها و لم يتوبوا و لم يرجعوا.

فلما كان اليوم الثالث أصبحوا ووجوههم مسودة فمشى

بعضهم إلى بعض وقالوا: يا قوم أتاكم ما قال لكم صالح، فقال العتاة منهم: قد أتانا ما قال لنا صالح فلما كان نصف الليل أتاهم جبرئيل عليه السلام فصرخ بهم صرخة خرقت تلك الصرخة أسماعهم وفلقت قلوبهم وصدعت أكبادهم وقد كانوا في تلك الثلاثة الأيام قد تحنطوا وتكفنوا وعلموا أن العذاب نازل بهم فماتوا أجمعون في طرفة عين صغيرهم وكبيرهم فلم يبق لهم ناعقة ولا راغية ولا شيء إلا أهلكه الله فأصبحوا في ديارهم ومضاجعهم موتى أجمعين، ثم أرسل الله عليهم مع الصيحة النار من السماء فأحرقتهم أجمعين وكانت هذه قصتهم[1].

فهؤلاء القوم عندما أهملوا أنفسهم وأصروا على التمادي في الغي والعصيان، كان مآلهم النهائي الفشل الذريع.. وبذلك فهذه التجربة ترجمة واقعية لقوله تعالى في سورة الشمس: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس:١٠].

ومن كل ذلك نفهم أن القرآن الكريم إذا جاء بنظريات مضغوطة تربوية أو غيرها، فإنه ولكي تتضح معالم هذه النظريات يسوقنا باتجاه التجارب التطبيقية الواقعية المذكورة في متن الآيات، سواء في نفس السورة أو في غيرها، فإنها تقوم بدور الترجمة

---

[1] أبو جعفر محمد بن يعقوب بن اسحاق الكليني الرازي. الكافي، ج٨، ص١٨٧.

التفصيلية لتفك الضغط الموجود.

التفاعل مع الواقع التاريخي.. بمعنى أن القرآن يتفاعل مع الأحداث والمواقف المتجددة -في زمن النزول-، وينطلق من خلالها للتأسيس لقيمه وإرشاداته، بحيث تكون تلك القيم بمثابة مبادئ عامة غير متقيّدة بخصوص الحدث، وهو ما يُعبَّر عنه أصولياً بأن (المورد لا يخصِّص الوارد)، مما يجعل القيم القرآنية فوق الزمان والمكان، إلا ما دخل ضمن حيِّز المتغيرات.. ولكن مع أن القيمة عامة وغير متوقفة عند حدود الحدث التاريخي، إلا أن معرفة المستوى الحقيقي لتلك القيمة العامة لا تكتمل إلا بالتأمل في الجو التاريخي الخاص.

وما سنأتي به من تطبيق من بين الآيات القرآنية للتمثيل لهذه المسألة، يُبيِّن بوضوح حقيقة هذا القول، فروح التسامح التي تدفقت من الرسول ﷺ تجاه المسلمين الذين خالفوا أوامره في غزوة أحد، ليست مختصة بمن قاتل في ذلك اليوم، وإنما هي مبدأ عام ينبغي أن يتجلّى في كل المواقف المشابهة والمتجددة على مستوى الزمان والمكان، ومع ذلك فإن المعرفة الدقيقة بمستوى ذلك التسامح وعظمته لا تتم إلا بالتشخيص الدقيق للحدث التاريخي الذي صدر النص في ظرفه.

يقول تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا

غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ...﴾ [آل عمران:١٥٩].

إن الباري جلت قدرته أمر رسوله محمد ﷺ -كما هو واضح في هذه الآية- أن يأتي بأمور ثلاثة تنتهي بأجمعها إلى التسامح وهي (العفو، والاستغفار، والمشاورة)، بحيث تكون في صالح ثلة من المسلمين، وذلك بأن يعفو عنهم ويستغفر لهم ويشاورهم في أمور المجتمع الإسلامي.. فمن هم هؤلاء، ولماذا طولب الرسول ﷺ بهذه التكاليف الثلاثة قبالهم..؟ في الحقيقة الإجابة على هذه التساؤلات تفصح لنا عن مستوى التسامح الذي يدعو إليه الدين كوسيلة لتمتين أواصر المجتمع الإسلامي.

إن المُشار إليهم في الآية هم المسلمون الذين ارتكبوا عدة أخطاء في غزوة أحد، والأخطاء تلك لم تكن أخطاء عادية، بل كانت في غاية الخطورة، وبدايتها المخالفة لأوامر المعصوم بصفته نبياً وقائداً أعلى للجيش، ثم الفرار من الزحف، وتعريض الرسول ﷺ لموت شبه محقق، حيث لم يبق معه سوى الإمام علي عليه السلام وأبو دجانة ونسيبة المازنية وزوجها وولداها، وكانوا لوحدهم يذبون عنه كتائب المشركين، مما أدى إلى كسر رباعيته وشق وجهه الشريف، وجرح البقية لدرجة أصيب علي عليه السلام بسبعين جراحة، حتى

تمخضت المواجهة عن هزيمة المسلمين واستشهاد سبعين رجل منهم[1].

فهذه الأخطاء لم تكن أخطاء بسيطة، ومع ذلك طولب الرسول ﷺ بأن يعفو عنهم فيما يتعلق بحقوقه، ويستغفر لهم -أي يطلب من الله سبحانه وتعالى أن يغفر لهم لما صدر منهم من تقصير في الحق الإلهي، وكأن الله سبحانه يريد أن يعفو عنهم، لكن أخطاءهم تشكل حجاباً يمنع من استجابة دعائهم، ولا يتسنى ذلك إلا بوسيلة مقبولة، فكان الرسول ﷺ هو الممثل لتلك الوسيلة-، بل ويشاورهم في أخطر أموره كالحرب والسلم وبناء المجتمع الإسلامي، ولا يقصيهم بدعوى ارتكابهم للأخطاء.. وكل ذلك يبين مستوى التسامح الذي دعا إليه الدين، وأراد من أبناء المجتمع المؤمن أن يجعلوه شعاراً لهم في حياتهم الاجتماعية.. وهذا المستوى من التسامح لم يكن ليتضح لنا لولا المراجعة التفصيلية للواقع التاريخي الذي شكّل ظرفاً للنص.

هذه بعض الخواص المتعلقة بمنهج الخطاب القرآني، ذكرتها لمجرد التمثيل، والتأكيد على أن فهم المعاني القرآنية بمستواها

---

[1] لمعرفة المزيد من التفاصيل راجع: آية الله العظمى السيد محمد الشيرازي. ولأول مرة في تاريخ العالم، باب وقائع غزوة أحد.

الدقيق يتطلب منهجاً علمياً، وعلى رأس هذا المنهج تأتي خواص الخطاب الوارد في الآيات، بالإضافة إلى الروايات الواردة عن المعصومين عليهم السلام.

معالم المنهج التربوي

القرآن الكريم لم يُرَدْ له أن يكون مجرد حمّالٍ لنظريات ورؤى مثالية عالية المستوى، من غير أن يكون لها أثر فعلي على حياة الإنسان المختلفة الأبعاد، بل أريد له أن يكون كتاباً تربوياً يؤثر بشكل فعلي على حياة الإنسان، فينقله من الجهل إلى العلم ومن الضعف إلى القوة ومن الظلمة إلى النور، كما قال تعالى في وصفه: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة:١٦].. وقد مررنا على هذا المطلب مفصلاً في الفصل الأول.

لهذا لا بد أن ننظر إلى الرؤى القرآنية على أنها روى تربوية، تتفاعل بشكل إيجابي وتفصيلي مع حياة البشر المتعددة الجوانب، وبناء على ذلك فإن التفسير الصحيح للآيات القرآنية هو الذي يهتم بهذا البعد، ويقوم بتوجيه الرؤى العلمية المنتزعة من الآيات إلى حقولها التربوية المناسبة.. وهذا ما نعنيه تماماً عند الحديث عن

منهجنا الموسوم بـ(التفسير العلمي التربوي)، فكل نظرة علمية لها مشارب تربوية خاصة، لو نتأمل فيها تتضح لنا بسهولة، ومن الظلم للقرآن تجميد نظرياته ورؤاه وإبقاؤها ضمن حدود العلمية المجردة، ولذلك فإننا لو نقوم بإلقاء نظرة على الأمثلة التطبيقية التي قدِّمتْ في متون البحث عن معالم المنهج العلمي، فسنجد وبكل وضوح أنها تتجه لمعالجة مشاكل نفسية أو اجتماعية حقيقية، وهذا ما سيدعوني لعدم الإطناب في بحث المعالم الخاصة بالمنهج التربوي، لعدم الحاجة إلى التمثيل، وسأكتفي بعرض موجز للمعالم، وهي حسب الأطروحة المتبنّاة في هذا الكتاب كالتالي:

إبراز البعد التربوي الفردي.. وذاك أن القرآن الكريم رسم صورة للإنسان بصفته الذاتية من مناحيها الثلاثة الروحية والعقلية والسلوكية، بعيداً عن أي متعلق يرتبط به من محيطه القريب أو البعيد، ولذلك وضع له العديد من القيم التربوية التي تؤدي إلى تكوين تلك الصورة، وقدّم له علاجاً لسائر الأمراض النفسية والسلوكية التي قد تطرأ عليه.

فالإيمان بالغيب في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ...﴾ [البقرة:٣]، قيمة عقلية تربوية وضعها الدين على رأس قائمة القيم المشكّلة للصورة الفعلية لعقلية الإنسان المؤمن، ولهذا عمد

القرآن للتأكيد عليها وعلى موقعها التربوي بالنسبة للإنسان كلما جاءت مناسبة ترتبط بها.

ففي قصة يونس عليه السلام التي تم التعرّض لها سلفاً، أكدت الآيات على موقعية الغيب في حياة الإنسان النفسية، فقد كان المنقذ الحقيقي ليونس من المأزق النفسي، ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ﴾ [الأنبياء:٨٨]، الذي وقع فيه جرّاء بقائه في بطن الحوت.. فمع أن أصل المشكلة التي وقع فيها يونس ابتلاع الحوت له، والله سبحانه وتعالى نجّاه منها، لكن الآيات المباركة لم تشر إلى النجاة من بطن الحوت، وإنما أكدت فقط على النجاة من الغم، وما ذلك إلا لخطورة المرض النفسي وأنه أكثر بلاء من الجسدي، والله -عز وجل- تفضّل على يونس ليس فقط بالنجاة من بطن الحوت، وإنما بإنقاذه أيضاً من المشكلة النفسية المؤرقة له، مع ملاحظة أن الآيات أكدت على أن المنقذ من مثل هذه الأمراض والباعث للسعادة والاطمئنان في حياة الإنسان، إنما هو الغيب -وقد سبق الإشارة لذلك-.

وفي قصة الهزيمة التي مُنِيَ بها الروم في قتالهم مع الفرس، التي تعرّضت لها الآيات القرآنية في مطلع سورة الروم، أكد الباري جل وعلا على ضرورة الثقة بالغيب لتجاوز حالة القلق والإحباط التي تطرأ على الإنسان في المنعطفات، فهو بيده النصر والهزيمة والقوة

الضعف، ولذلك بعد أن أخبرت الآيات المسلمين بالهزيمة، سارعت إلى التعقيب بخبر آخر ينص على تحوّل الهزيمة إلى انتصار عما قريب، لبعث الأمل في نفوسهم[1]، فقد قال تعالى: ﴿غُلِبَتْ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بِضْعِ سِنِينَ...﴾ [الروم:٢-٤]، باعتبار أن الأمر كله بيد القوة الغيبية ﴿...لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الروم:٤-٥].. وللتأكيد على أن سبب القلق الذي طرأ على المسلمين يعود إلى تناسي الغيب والتجرّد في البعد المادي، جاءت الآية لتقول: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ [الروم:٧].

بالتالي الغيب علاج تربوي لمشكلة من أهم المشاكل النفسية للإنسان الفرد، هذا ما تريد أن تؤكد عليه الآيات على امتداد القرآن الكريم.. وهكذا القرآن دائماً، فهو يقوم بتحرير القيم النفسية والعقلية والسلوكية التي تشكّل الصورة الواقعية للفرد المؤمن حسب التصوّر الديني، إما عبر العرض المباشر أو عبر الإشارة إليها في سياق

---

[1] فلأن الروم كانوا أهل كتاب فهم أقرب من ناحية الانتماء إلى المسلمين، بينما الفرس كانوا من الوثنيين، وكان توقّع المسلمين لحوق الهزيمة بغير المتدينين، فلما انتصر الفرس شكل ذلك ضربة نفسية موجعة للمسلمين.

مشكلة أو حادثة معبّرة.. والتفسير الأرقى هو الذي يعمد إلى إبراز هذا الجانب التربوي لتحرّك الآيات في مجالها الطبيعي المؤثر في حياة الإنسان.

إضاءة البعد التربوي الاجتماعي.. فكما أن الآيات القرآنية جاءت بصورة واضحة لشخصية الفرد المؤمن، وبالتالي اهتمت بتحرير القيم المكوّنة لتلك الشخصية، فإنها في نفس الوقت رسمت صورة واضحة للمجتمع المؤمن، ورمزت إليها كثيراً كما في قوله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ...﴾ [البقرة:١٤٣]، وأيضاً ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ...﴾ [آل عمران:١١٠]، ولذلك فقد جاءت بقيم كثيرة تدفع باتجاه تكوين تلك الصورة، كالإيمان والدعوة إلى الدين كما في قوله تعالى في متن الآية الثانية: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾، والتزام طاعة القائد العام كما في قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ...﴾ [النساء:٥٩]، ووحدة الصف واستيعاب الاختلاف في الوجهات الفكرية كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾ [الإسراء:٨٤]، وما إلى ذلك.

وهذا البعد تارة تقوم الآيات بتحريره عن طريق العرض المباشر، كما في هذه بعض النماذج المشار إليها أعلاه، فالإيمان قيمة للمجتمع المسلم، والطاعة قيمة، والوحدة قيمة، وقد قام القرآن بعرضها على نحو مباشر.. وتارة تقوم بالإشارة إليها أو الإحالة عليها في سياق حادثة تاريخية أو مشكلة اجتماعية، كما في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ...﴾، فهذه الآية جاءت لتكون علاجاً لمشكلة نفسية اجتماعية طرأت على المسلمين بعد هزيمتهم في أحد، فالهزيمة كادت تزرع فيهم روح اليأس والإحباط، لكن الآية أعطتهم الثقة بأنفسهم وبيّنت لهم بأنهم أرقى أمة على وجه الأرض، وبالتالي فالتفوّق لهم.. فذلك أعطاهم زخماً روحياً هائلاً، ذوّب حالة الإحباط التي اعترتهم، فاندفعوا وحققوا مكاسب عديدة.

ومن ذلك كثير في القرآن الكريم، والمفسر ينبغي له أن يستكشف هذه الإشارات التوجيهية ويضيئها، لتتحرك المعاني القرآنية في مساحاتها الحقيقية وتحقق أهدافها التي جاءت من أجلها.

بلورة البعد التربوي السياسي.. باعتبار أن القرآن الكريم بشّر بدولة مؤمنة، كما يظهر من حديثه المستمر عن خصائص هذه الأمة المرحومة ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...﴾، ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ

لِلنَّاسِ...﴾، ولم يكن مجرد رسالة روحية ولا علاقة له بسياسة الدولة والعمران، كما ادعى ذلك الشيخ علي عبد الرزاق في كتابه (الإسلام وأصول الحكم).. ولذلك فقد حمل بين طياته رؤية عامة للدولة والمجتمع، تارة يعرضها على هيئة قيم والزامات شرعية، يتصل بعضها بتنظيم الحالة الإدارية كما في قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...﴾، ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ...﴾، وبعضها يتصل بتنظيم الحالة الاقتصادية كما في قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى...﴾ [الأنفال:٤١]، ﴿قُلْ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال:١]، ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ...﴾ [التوبة:٦٠].. وما إلى ذلك مما لسنا في صدد تفصيله الآن.

وتارة تشير إليها الآيات -كغيرها من القيم الشخصية والاجتماعية- في سياق تجارب تاريخية أو مشكلة عارضة.. كما أشارت إلى أهمية المجالس الاستشارية في تجربة بلقيس بنت شرحبيل ملكة اليمن[1]، في قوله تعالى: ﴿قال قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِي فِي

---

[1] فقد كان في مملكتها اليمن ثلاثمائة وثلاثة عشر قبيلة، واختارت من كل قبيلة عاقلاً من عقلائها ليكون مستشاراً لها، فكانت تستشير في مسائل الدولة مجلساً =

أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ [النمل:٣٢]، وكما أشارت إلى الموقعية السياسية للقائد العام للمجتمع في الأزمات والحالات الحرجة كالحروب -مثل أحد وأشباهها-، وفي ذلك قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ...﴾ [آل عمران:١٥٩].

هذه هي المعالم الثلاثة للمنهج التربوي، الذي ينبغي أن يسير جنباً إلى جنب مع المنهج العلمي.. فإذا اتحد المنهج العلمي مع المنهج التربوي في مسيرة تفسيرية واحدة، فستتولّد عن ذلك مفاهيم ومعاني قرآنية دقيقة، وستتحوّل تلك المعاني إلى برامج تربوية، تعمل على هداية الإنسان الفرد والمجتمع، وقيادته في مسيرة شخصية واجتماعية سليمة، وهذا هو الهدف من الدعوة لـ(التفسير العلمي التربوي).

- استشارياً مكوّناً من ثلاثمائة وثلاثة عشر مستشاراً.. وإنما أستند إلى هذه التجربة مع قدمها لسكوت القرآن عنها الدال على ترضّيه وعدم اعتراضه عليها.

الخاتمة

قال لم تكتمل بعد جميع فصول هذه المحاولة، فالتأسيس لمشروع (التفسير العلمي التربوي) يتطلب شيئاً من الإطناب والتفصيل، فهناك الكثير من المسائل تحتاج إلى بحث ومراجعة، وعلى رأسها تساؤلات مهمة تتعلق بكيفية تطبيق هذا المنهج عملياً، والدواعي الكامنة وراء تبنّي هذا المشروع، لأنها تستبطن رؤية مغايرة لبعض النماذج التفسيرية القائمة، وقد تكون رؤية تكميلية لنماذج أخرى، وذلك يتطلب مراجعة تفصيلية للتفاسير الموجودة، يضاف إلى ذلك أن خواص الخطاب القرآني التي تم التعرّض لها لم تستوعَب، فما تم التحدّث عنه نماذج تمثيلية لتقريب الأطروحة ورفع الغموض عنها، وإلا فخواص هذا الخطاب كثيرة جداً، واستيعابها

يحتاج إلى دراسة ميدانية مفصلة.

بل أن أغلب ما تم بحثه في هذه الأطروحة المختصرة -ليس في الفصل الثاني الذي تتركز فيه الأطروحة العملية، وإنما حتى في الفصل الأول المهتم بالشق النظري منها- هُمِّش فيه الجانب الجدلي بل أقصي تماماً، لأن الهدف الأساس منها لم يكن سوى التعريف العام للمنهج المُتبنّى، وإلا ففي ثنايا كل ما طرح العديد من الإثارات والتساؤلات الجدلية، ولا شك أن لها أهمية خاصة في تعميق هذه الأطروحة، لكنها خارجة عن خطة هذا الكتاب، ولعلها تحظى مستقبلاً بمزيد من البحث والتحقيق في مشروع كتابي آخر.

لكن لا يفوتني أن أؤكد هنا بأن دواعي انتخاب هذا المشروع التفسيري، تكمن فيما نعتقد من نقص في جانب البلورة العملية للمنهج العلمي التربوي في العديد من التفاسير، إذ أن بعضها ركّز كثيراً على الجانب العلمي وأهمل الجانب التربوي، وبعضها الآخر بعكس ذلك تماماً.. ولا يعني ذلك أنها لا تشير إليه بتاتاً، أو لا تتوقف عند بعض إشاراته، وإنما لا تعتمد البلورة المفصّلة والعملية المنطلقة من حيثيات هذا المنهج..

كما أن من دواعي هذا الانتخاب، اعتقاد لدينا ينص على أن هذا المنهج هو الأقدر على الاستجابة لكل المتطلبات المعاصرة

الثقافية والاجتماعية.. فأما ثقافياً فلأنه يتولى عملية التفاعل الإيجابي مع الإثارات والاعتراضات الثقافية المتجددة، وأما اجتماعياً فلما يقوم به من التأسيس للنظريات والمبادئ العامة المتعلقة بإدارة المجتمع الإسلامي كأمة وكدولة.

لهذا رأينا ضرورة السعي لإبراز وبلورة هذا المشروع التفسيري من خلال هذه المحاولة وأخرى لاحقة بإذن الله تعالى، وستكون أطروحة هذا الكتاب بضميمة ما سينتجه الأخ الصديق سماحة العلامة الشيخ عبد الغني العباس في الإصدار الثاني حول (القرآن والشريعة) الخط العام الذي ستسير فيه كل إنتاجاتنا في هذه المؤسسة القرآنية (القرآن نور).. وفي ذلك نسأل الله سبحانه وتعالى أن يكتب لنا التوفيق والسداد، وصلى الله على نبينا محمد وآله الطاهرين.

قائمة المصادر

[١] ابن بابويه القمي، الشيخ أبو جعفر الصدوق محمد بن علي بن الحسين. عيون أخبار الرضا، ط١، بيروت: منشورات مؤسسة الأعلمي، ١٩٨٤م.

[٢] ابن بابويه القمي، الشيخ أبو جعفر الصدوق محمد بن علي بن الحسين. معاني الأخبار، د.ط، قم: انتشارات إسلامي التابعة لجماعة مدرسي الحوزة العلمية، ١٣٦١هـ ش.

[٣] الحر العاملي، الشيخ محمد بن الحسن. وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة. د.ط، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت.

[٤] الخوئي، آية الله العظمى السيد أبو القاسم الموسوي. البيان في تفسير القرآن، ط٦، بيروت: دار الزهراء، ١٩٩٢م.
[٥] الرازي، فخر الدين. التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠م.
[٦] رضا، محمد رشيد. تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، د.ط، بيروت: دار المعرفة، ١٩٩٣م.
[٧] الشعراوي، الشيخ محمد متولي. تفسير الشعراوي، د.ط، د.م: أخبار اليوم-قطاع الثقافة، د.ت.
[٨] الشيرازي، آية الله العظمى السيد محمد. فقه العقائد، ط٢، بيروت: دار الإمامة ودار العلوم، ٢٠٠٠م.
[٩] الشيرازي، آية الله العظمى السيد محمد. ولأول مرة في تاريخ العالم، ط١، د.م: مؤسسة الرسول الأعظم ﷺ، ١٩٩٥م.
[١٠] الشيرازي، آية الله العظمى الشيخ ناصر مكارم. نفحات القرآن، د.ط، د.م: مؤسسة أبي الصلاح، د.ت.
[١١] الطباطبائي، السيد محمد حسين. الميزان في تفسير القرآن، ط٢، قم: مؤسسة مطبوعاتي إسماعيليان، ١٩٧١م.
[١٢] الطبرسي، أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب. الاحتجاج، د.ط، النجف الأشرف: مطابع النعمان،

١٩٦٦م.

[١٣] الطبرسي، الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن. مجمع البيان في تفسير القرآن، ط١، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٢م.

[١٤] العوامي، فيصل. عن ثقافة النهضة: دراسة في قيم العقل والروح والنهضة الاجتماعية، ط١، بيروت: مؤسسة الانتشار العربي،٢٠٠١م.

[١٥] العياشي، أبو النظر محمد بن مسعود بن عياش السلمي السمرقندي. تفسير العياشي. د.ط، طهران: المكتبة العلمية الإسلامية، د.ت.

[١٦] القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري. الجامع لأحكام القرآن، د.ط، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٣م.

[١٧] القمي، أبو الحسن علي بن إبراهيم. تفسير القمي، ط٣، قم: مؤسسة دار الكتاب، ١٤٠٤هـ.

[١٨] الكليني الرازي، أبو جعفر محمد بن يعقوب بن اسحاق. الكافي، ط٣، طهران: دار الكتب الإسلامية، ١٣٨٨هـ.

[١٩] المجلسي، الشيخ محمد باقر. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار

الأئمة الأطهار، ط٢، بيروت: مؤسسة الوفاء، ١٩٨٣م.
[٢٠] محمدي، كاظم ومحمد دشتي. المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة، د.ط، بيروت: دار الأضواء، ١٩٨٦م.
[٢١] المدرسي، آية الله العظمى السيد محمد تقي. من هدى القرآن، ط١، بيروت: دار البيان العربي، ١٤٠٦هـ.